محاضرات في العقائد - المرحلة الثالثة –قسم علوم القرآن

حديث الغدير

مقدمة :

من الوقائع المهمة في تأريخ المسلمين واقعة (غدير خم) ، عندما أمر الباري تعالى نبيه (ص) بعد رجوعه من حجة الوداع - التي نعى فيها النبي (صلى الله عليه وآله) ، نفسه أمام المسلمين كافة - أن يبلغ بالولاية لأمير المؤمنين (عليه السلام) ، ويعيّنه خليفة من بعده آخذاً له منهم البيعة بالمولوية لكل مسلم ومسلمة.

إن قضية غدير خم وبيعة المسلمين كافة بما فيهم الخلفاء الثلاثة وزوجات النبي (صلى الله عليه وآله) لأمير المؤمنين (ع) لا يمكن إنكارها ، فهي كالشمس في رابعة النهار ، خاصة إذا دققنا في الحرص الشديد من الباري تعالى على أن يبلّغ النبي (صلى الله عليه وآله) للإمام علي (ع) بالولاية حتى نزل قوله عزّ وجلّ : (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس) المائدة / 67 ، حتى يمكن القول أنه لم يوجّه خطاباً للنبي (ص) في القرآن الكريم بهذا التشديد.!!!

ان تحديد (الزمان) و(المكان) لإخبار بأمر ما واتخاذ قرار ، يعطي أهمية وتأثيراً أكبر لهذا القرار ، فالزمان هنا هو العودة من حجة الوداع ، وظهور الاسلام على الشرك ، ودرء الخطر عن المسلمين ، ووصول الدين الى أوج قوته ومنعته ضد الاعداء ؛ والمكان غدير خم ، مكان افتراق القبائل الى بلادها ليصل الخبر الى كل شخص ، فيأتي اعلان تنصيب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) في هذا الزمان والمكان على جانبين مهمين :

الاول : يخص المجتمع المسلم ، والثاني : خارج المجتمع المسلم.

فالأول : إن إعلان خلافة الإمام علي(عليه السلام) بعد الرسول (صلى الله عليه وآله) ، كانت بمثابة التأكيد من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما كان يمهد له طول فترة نبوته ، من أخبار أهل بيته والصحابة بأفضلية علي (عليه السلام) من بعده ، وانه خليفته في مواطن كثيرة ، والاخبار الواردة في ذلك كثيرة من الفريقين ، وقد وجب على كل مسلم القبول بهذه البيعة والالتزام بها ، وبذلك سد الباب بوجه المنافقين والمرجفين وطمئنة المسلمين انه لن يوجد فراغ ديني وسياسي واجتماعي واقتصادي سيحصل بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، اذا التزموا بهذه البيعة ، وأن الدين محفوظ ما دامت الأمة ملتزمة بوصية نبيها بأتباع كتاب الله وعترة النبي(صلى الله عليه واله وسلم).

والثاني : ان بيعة الغدير هي رسالة الى الدول المعادية للإسلام آنذاك ، وخصوصا الامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، لأن هذه الدول كانت تنتظر وفاة الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) لتسيطر على بلاد الاسلام ، وخصوصا انها كانت تشيع في المجتمع

المسلم عن طريق عملائها المنافقين ، ان هذا الدين سينتهي بمجرد موت صاحبه وأن العرب سترجع الى حكم الجاهلية بعده ، ومن تلك الشواهد مقولة (العاص بن وائل) حول النبي انه ابتر ، أي ليس له ذرية وانه سينقطع نسله وذكره ويزول دينه بعد موته ، فكان يوم الغدير حين اثبت الله سبحانه لهم ان هذا الدين باق مهما حاولوا ازالته وأن الإمام علي(عليه السلام) هو وصي الرسول الاكرم (صلى الله عليه واله وسلم) وهم يعرفونه جيدا ، بعد ان أثبت لهم أمير المؤمنين (عليه السلام) في ساحة العمل امتلاكه كل صفات القيادة التي يمتلكها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم).[1]

.....

1. ينظر : موقع منتديات يا حسين الألكتروني .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل غدير خمّ يتحرج من مسألة إعلان الولاية لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) حتى لا يتهم بالتحيّز، مع أن الأمر إلهي.. حتى نزلت الآية الكريمة التي ترفع عنه الحرج ، بقوله تعالى :(يَا أَيّهَا الرّسُولُ بَلّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) المائدة / 67.

وقد مرَّ في حديث الدار في يوم الانذار : إنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : (أمرني ربّي بأنْ أُبلّغ القوم ما أُمرت به ، فضقت بذلك ذرعاً حتّى نزل جبرئيل وقال : إن لم تفعل لم تبلّغ ما أُرسلت به) ، فكانت الدعوة وكان إبلاغ إمامة أمير المؤمنين وخلافة إمامنا (عليه السلام) من جملة ما أمر به رسول الله منذ بدء الدعوة ، وإلى أواخر أيّام حياته الشريفة المباركة ، لانّ هذه الآية في سورة المائدة ، وسورة المائدة آخر ما نزل من القرآن بإجماع المسلمين . وفي هذا اليوم في حجّة الوداع ، جمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين ، وهو عائد من حجه ، في بقعة تسمى بغدير خم ، وفي حر الهاجرة تفيأ ظل إحدى السمرات ، وهي الشجرة العظيمة ، حيث وضع له منبر من أحداج الإبل ، فاعتلاه مخاطباً جموع الحجيج[1] ، قائلاً :

(أيها المؤمنون ألست أولى بكم من أنفسكم؟) , قالوا : بلى يا رسول الله ، قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : (ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وأدر الحق معه كيفما دار) ، آخذاً بيد علي (عليه السلام) ، ليقيم عليهم الحجّة. فانطلق المسلمون يبايعون علياً (عليه السلام) ، وكان أول المبايعين والمهنئين (عمر بن الخطاب) الذي قال له : (بخٍ بخٍ لك يا علي ، أصبحت مولاي ومولى كل مسلم ومسلمة)[2]. بعدها نزلت الآية بقوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً) المائدة /3. ومعنى ذلك أن الدين اكتمل والنعمة تمت بهذه البيعة والولاية.

تفسير آية إكمال الدين

قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً) المائدة / 3.

ومع ذلك ورغم صراحة قضية الغدير ودلالتها على تعيين الإمام علي كخليفة وإمام من السماء لكن العامة تبعاً لأسلافهم اختلفت مواقفهم إزاء هذه الحادثة المهمة بل تضاربت آراؤهم بين مؤيّد لما يذهب إليه الشيعة على مضضٍ وبين مخالف، وبين من يطعن في القضية وبين مؤوّل لها ، فبعض الفقهاء المسلمين يفسرون آية إكمال الدين وإتمام النعمة بغير هذا التفسير، وفي ذلك أقوال :

أحدها : أن معناه أكملتُ لكم فرائضي وحدودي وحلالي وحرامي بتنزيل ما أنزلت وبيان ما بيّنت لكم ، فلا زيادة في ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ، وكان ذلك يوم عرفة عام حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة.

ثانيها : أن معناه اليوم أكملتُ لكم حجكم وأفردتكم بالبلد الحرام ، تحجونه دون المشركين ، ولا يخالطكم مشرك.

.....

1. **قيل : أنّ عددهم 90 ألفاً ، وقيل : 120 ألفاً ، وقيل : 124 ألفاً . ينظر : تفسير الأمثل : 4 / 87 .**
2. **هذا الحديث يعرف بحديث «التهنئة» وقد أورده كثير من كبار علماء الحديث والتّفسير والتّأريخ من أهل السنة ، عن طريق عدد من الصحابة ، مثل : ابن عباس ، وأبي هريرة ، والبراء بن عازب ، وزيد بن أرقم. وقد نقل العلاّمة الأميني(رحمه الله) هذا الحديث في المجلد الأوّل من كتابه «الغدير» عن ستين عالماً من علماء أهل السنة! ينظر : 4 / 87.**

ثالثها : أن معناه اليوم كفيتكم الأعداء وأظهرتكم عليهم [1].

والفريق الآخر لا ينكر هذا الحديث بعد أن تجاوز حد التواتر 130 صحابياً ، و84 تابعياً ، و360 إماماً وحافظاً للحديث ، وفيهم الحنفي والشافعي وغيرهما... [2]

ولكن الكثير منهم فسّروا الولاية بالحبّ والمودة ، وأن المراد من قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) : (من كنت مولاه) : من أحبني فليحب عليا , وقد رُدّ التفسير بأن قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن كنت مولاه فعلي مولاه) ، يدل صراحة على أن نفس الولاية التي ثبتت لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) على المؤمنين فهي ثابتة لعلي (عليه السلام) ، دون زيادة أو نقصان ، وهذه الولاية هي السلطة الدينية والزمنية ، حتى ولو كان للفظ الولاية ألف معنى ومعنى.

وعلى هذا يكون معنى الآية، أن الله سبحانه أكمل الدين في هذا اليوم بالنص على علي بالخلافة!

ويتساءل البعض، أن إكمال الدين بإظهاره على الأديان ، وبيان أحكامه كاملة وافية , واضح لا يحتاج إلى تفسير ، أما إكمال الدين بالنص على خلافة علي ، فلا بد له من التفسير والإيضاح.

وبيان ذلك : أن الإكمال حقاً لا يتم إلاّ بوجود السلطة التشريعية والتنفيذية معاً ، والأولى وحدها ليست بشيء ما لم تدعمها الثانية ، وقد كان التنفيذ بيد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فظن أعداء الإسلام أن السلطة التنفيذية ستذهب بذهاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبذهابها يذهب الإسلام... فأقام النبي (ص) علياً (ع) ليحفظ الشريعة من بعده ، ويقيم الدين كما أقامه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وبهذا لم يبق للكفار أي أمل في ذهاب الإسلام أو ضعفه [3].

وقد أورد (الزرقاني) أن معنى إكمال الدين هو إنجاحه وإقراره ، لأن الإسلام كان قد علت وظهرت شوكته ، وفي مقابل هذا التفسير رأي (السيد الطباطبائي) ف والأقرب أن يكون معنى إكمال الدين فيها يومئذٍ هو إنجاحه وإقراره، وإظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولا ريب أن الإسلام في حجة الوداع كان قد قويت شوكته، حتى لقد أجلِيَ المشركون عن البلد الحرام! ولم يخالطوا المسلمين في الحج والإحرام.[4]

.....

1 . ينظر : فضائل الصحابة : 15 رقم 45 ، وخصائص أمير المؤمنين (عليه السلام) : 96 رقم 79 - مكتبة المعلاّ - الكويت - 1406 هـ.
2 . ينظر : شواهد التنزيل لمن خص بالتفضيل 4 / 16 .
3 . الفصول المختارة : الشيخ المفيد / 236، تذكرة الخواص : سبط ابن الجوزي /33.
4 الإرشاد : الشيخ المفيد 1: 175 - 177 ، تذكرة الخواص : سبط ابن الجوزي : 33، والمناقب : الخوارزمي الحنفي : 136، والنور المشتعل : الحافظ أبو نعيم الاصبهاني : 57

صحة وتواتر حديث الغدير

لقد أجمع المسلمون على صحة وقوع حديث الغدير, و لم يكن هناك خلاف في وجوده ، بل كان الخلاف حول تفسير ما تم فيه , على أن ما تم فيه كان من الوضوح بالدرجة الكبيرة ، كما لا يخفى.

وجاء الشعر مواكبا للحدث وداعما له ومثبتا لوجوده , إذ انطلقت أصوات الشعراء وعلى مر العصور والأزمنة هاتفة بنداء الغدير, ولم يخل عصر من عصور الإسلام من تلك الأصوات.

وانطلقت ألسن الصحابة لتعلن عن صدق ذلك الحدث العظيم , فقد أعلن الصحابي (قيس بن سعد بن عبادة) إيمانه بذلك الحدث العظيم ، حيث قال :

وعلي إمامنا وامامٌ لسوانا أتى به التنزيل

يوم قال النبي من كنت مولاه فهذا مولاه خطبٌ جليل [1]

ولم يكن الأمر منحصرا في محبي علي (عليه السلام) , فقد جاء حسان إلى رسول الله (صلّى الله عليه وآله وسلم) ، فقال له : يا رسول الله ، ائذن لي أن أقول في هذا المقام ما يرضاه الله . فقال له : (قل يا حسان على اسم الله) . فوقف على مرتفع من الأرض ، وتطاول المسلمون لسماع كلامه ، فأنشأ يقول :

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخمٍ واسمع بالنبي منادياً

فقال فمن مولاكم ونبيكم فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت نبينا ولم تلق منا في الولاية عاصياً

فقال له قم يا علي فإنني رضيتك من بعدي إماماً وهادياً

فمن كنت مولاه فهذا وليّه فكونوا له اتباع صدقٍ مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذي عادى علياً معادياً

فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم : (لا تزال ـ يا حسان ـ مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك). [2]

ولذا فإن الشعر ولد مع الغدير منذ بدايته , وظل مصاحبا له دونما توقف , ولقد وقف (عمرو بن العاص) , ذلك العدو اللدود للإمام علي (عليه السلام) , يعلن اعترافه بغدير علي , وما حمله ذلك الغدير من توجهات عند خطابه لمعاوية :

.....

1. لطائف أخبار الدول : الشيخ الاسحاقي : 61 ، وشرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد المعتزلي : 10 / 56 .
2. موسوعة الغدير : 1 / 9 .

وكم قد سمعنا من المصطفى وصايا مخصصةً في علي

وفي يوم خم رقى منبراً يبلّغ والركب لم يرحل

وقال فمن كنت مولىً له فهذا له اليوم نعم الولي

فوالِ مُواليه يا ذا الجلال وعادِ معادي اخي المرسل

فبخبخ شيخك لما رأى عُرى عقد حيدر لم تحلل[1]

رواة الحديث [2]

القسم الأول : أبناء العامة :

وقد اختلفت الأقوال في عدد الذين شهدوا قضية غدير خم، فقد نقلِ العلامة الأميني في موسوعته «الغدير» قال: وعند خروجه صلى الله عليه وآله أصاب الناس بالمدينة جدريّ أو حصبة منعت كثيراً من الناس من الحج، ومع ذلك كان معه جموع لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد يقال: خرج معه تسعون ألف، وقد يقال: مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، وقيل: مائة ألف وعشرون ألفاً، وقيل: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، ويقال أكثر من ذلك ، وهذه عدة من خرج معه ، وأما الذين حجّوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذين أتوا من اليمن مع علي (أميرالمؤمنين) وأبي موسى.

وفي كتاب الغدير أشار العلامة الأميني أن رواة حديث الغدير من الصحابة يبلغون مائة وعشرة صحابياً، أما رواته من التابعين فهم أربعة وثمانون تابعياً، بينما بلغ عدد من نقلوا الحديث من أئمة الحديث وحفّاظه والأساتذة ثلثمائة وستون ، فضلاً عمّن ألّفوا من الفريقين في الغدير، والذين بلغوا حسب إحصاء العلامة الأميني وما بلغ بيده ستة وعشرون؛ منهم الطبري صاحب التأريخ، وابن عقدة والجعابي والشيباني والغضايري والسجستاني والكراجكي وغيرهم. [3]

---

1. فضائل الصحابة : 2 / 473 ، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي في 10 / 56.
2. موسوعة الغدير : 1/ 9 . حديث الغدير من متواترات أحاديث الإسلام ، وقد اتفقت على نقله كافّة الفرق الإسلامية ومن مصادرها في تخريجات تفسير الحبري (448 - 450) وينظر : عبقات الأنوار للسيد حامد حسين الهندي. واعترف بتواتره العامة ، فراجع : نظم المتناثر: الكتاني : 194
3. ينظر تفسير روح المعاني 4 / 376 ، والمراجعات : 373.

بل يمكن القول : لو أنكرت قضية الغدير وشُكّك في دلالتها على ولاية أمير المؤمنين (ع) وتعيينه خليفة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله) ؛ فإنه لا يمكن أن يقام لأيّ قضية أخرى دليل ولشُكّك في حجية كل الأدلة ، وذلك لما للغدير من الصراحة والوضوح في الدلالة على ما يذهب إليه الشيعة الإمامية بأن الرسول (صلى الله عليه وآله) ، جمع كل هذه الجموع الغفيرة تحت هجير الشمس الحارقة ليعيّن الخليفة من بعده ليس إلا. فالرواة لحديث الغدير من التابعين عددهم أضعاف عدد الصحابة ، وهذا واضح ، لانّ كلاً من الصحابة قد سمع الحديث منه أكثر من تابعي ، والتابعون أيضاً نقلوا الحديث إلى أصحابهم وهكذا ، فكان العلماء الرواة ل(حديث الغدير) من أعلام السنّة في القرون المختلفة يبلغ عددهم المئات ، وإن الاسانيد التي روي بها حديث الغدير لا تحصى كثرة ، وهي فوق حد التواتر بكثير ، ويشهد بذلك :

أوّلاً : كثرة الكتب المؤلفة في جمع طرق حديث الغدير وأسانيده .

ثانياً : ذكر حديث الغدير في الكتب المختصة بجمع الاحاديث المتواترة ، ف(للسيوطي) أكثر من كتاب ألّفه في الاحاديث المتواترة وأدرج فيها حديث الغدير، و(الزبيدي) صاحب تاج العروس له كتاب خاص بالاحاديث المتواترة وفيه حديث الغدير، و(الكتّاني) له كتاب في الاحاديث المتواترة وحديث الغدير موجود فيه ، والشيخ (علي المتقي الهندي) صاحب كنز العمّال له كتاب خاص بالاحاديث المتواترة وفيه حديث الغدير ، والشيخ (علي القاري الهروي) له أيضاً كتاب في الاحاديث المتواترة وحديث الغدير موجود فيه. فالكتب المختصة بالاحاديث المتواترة مشتملة على حديث الغدير.[1]

ثالثاً: يذكر عدد من أعلام الحفّاظ والمحدّثين تواتر هذا الحديث ، ك(الذهبي) مثلاً ، الذي يقول : هذا الحديث متواتر أتيقّن أنّ رسول الله قاله. والقائل من ؟ الذهبي، والذهبي متشدّد ومتعصّب.[2]

وممّن يعترف بتواتر حديث الغدير: ابن كثير الدمشقي[3] ، وابن الجزري شمس الدين[4] ، وهذا حافظ كبير من حفّاظهم.

وعن بعض المصادر المعتبرة ، أخرج أحمد بن حنبل بسند صحيح عن زيد بن أرقم قال: (نزلنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بواد يقال له : وادي خم ، فأمر بالصلاة فصلاّها بهجير ، قال : فخطبنا ، وظلّل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بثوب على شجرة سمرة من الشمس ، فقال رسول الله : (ألستم تعلمون ؟ ألستم تشهدون أنّي أولى بكلّ مؤمن من نفسه) ؟ قالوا: بلى ، قال : (فمن كنت مولاه فإنّ عليّاً مولاه ، اللهمّ عاد من عاداه ووال من والاه).[5]

.....

1. ينظر : صحيح مسلم 1873/4 رقم 36 .
2. ينظر : مسند أحمد 498/5 رقم 18815.
3. البداية والنهاية 5 / 213.
4. أسنى المطالب في مناقب علي بن أبي طالب: 3 - 4.
5. مسند أحمد 501/5 رقم 18838 ، وينظر : تاريخ الطبري : 2 / 217

وأخرج النسائي بسند صحيح عن أبي الطفيل عن زيد بن أرقم قال : (لمّا رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من حجة الوداع ونزل غدير خم، أمر بدوحات فقممن ـ أي فكنسن ـ ثمّ قال : (كأنّي قد دعيت فأجبت ، وإنّي تارك فيكم الثقلين ، أحدهما أكبر من الاخر : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فانظروا كيف تخلّفوني فيهما ، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عَلَيّ الحوض)، ثمّ قال : (إنّ الله مولاي وأنا وليّ كلّ مؤمن)، ثمّ إنّه أخذ بيد علي (رضي الله عنه) وقال : (من كنت وليّه فهذا وليّه ، اللهمّ وال من والاه وعاد من عاداه). يقول أبو الطفيل : فقلت لزيد : سمعته من رسول الله ؟ فقال : إنّه ـ وفي بعض الالفاظ : والله ، بدل إنّه ـ ما كان في الدوحات أحد إلاّ رآه بعينه وسمعه بأُذنيه[1] . فهذان لفظان بسندين معتبرين عن زيد بن أرقم.

القسم الثاني : الإمامية :

أنّ العلاّمة الأميني(رحمه الله) نقل في كتابه (الغدير) حديث الغدير عن 110 من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع اسنادها ، وعن 84 من التابعين ، وعن 360 من العلماء والأُدباء المسلمين المعروفين بما لا يدع مجالا للشك في أنّ حديث الغدير واحد من أوثق الأحاديث المتواترة ، ولئن شك أحد في تواتر هذه الرّوايات فإنّه لا يمكنه أن يقبل أي حديث متواتر آخر.[2]

ويرى الشيعة الإمامية أن هذا الحديث دليل على أن الإمامة لعلي بن أبي طالب (ع) ، حيث قالوا : أن في هذا اليوم نزلت الآية (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلاَمَ دِيناً) ، وأن إتمام الدين هو الإيمان بالإمام والولي علي بن أبي طالب من بعد الرسول محمد (ص) ،وتقول أيضًا : إن جميع المسلمين والمسلمات قد بايعوه في هذا اليوم على السمع والطاعة ، و يستدلون بها بنقاط كما يلي:

1. هي أن القضية كانت مهمة للغاية حيث أمر النبي أن يبلغ ما يؤمر به و لو كان لم يبلغ ما أمر به لما كان بلغت رسالته ، فالأمر الذي أمر الرسول كان يرادف النبوة بعظمتها ، وعدم الإبلاغ كان يساوي عدم إبلاغ النبوة بأكملها ، (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ).

2. هي أن القضية ليست كالصلاة و الصوم و الحج ؛ لأن عند نزول سورة المائدة في السنة الأخيرة من حياته (صلى الله عليه و آله) ، كان النبي قد بين جميع الأركان الإسلامية لذلك الزمان.
3. هي أن المستفاد من الآية ، هو أنه قد يظهر الكثير من المعارضين لهذه القضية ، حيث كان من المحتمل أن تتعرض حياة النبي للخطر.(وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ).

وأما القرائن الحالية حول الحديث عندنا ، فهي تهنئة الصحابة لعلي (ع) ، فقد نقلت المصادر بعد سردها لحادثة الغدير قول أبي بكر وعمر بن الخطاب لعلي بن أبي طالب : (بخٍ بخٍ لك علي، لقد أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة) .

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان عند ذلك ، هو : هل كانت هذه التهنئة –ومن قبل هذه الجموع الحاشدة- لأمر بسيط ، وهو ابن العم أو المحب أو.....؟؟؟

.....

1. الكامل في التاريخ : ابن الأثير : 2 / 22 ، وينظر : مسند أحمد: 1/ 118.
2. ينظر : الغدير للعلاّمة الأميني ، وإحقاق الحقّ : للقاضي نور الدين التستري، والمراجعات : للسيد عبد الحسين شرف الدين، ودلائل الصدق : للشيخ محمّد حسن المظفر. وغيرها الكثير .

شبهات حول معنى (المولى) وردود الفريقين

إن الرواية المشهورة التي جاءت عن رسول الله (ص) في جميع الكتب وهي : (من كنت مولاه فعلي مولاه) ، توضح الكثير من الحقائق , وان اصر كثير من كتاب اهل السنة على تفسير كلمة (المولى) هنا بمعنى : الصديق والمحب والناصر وابن العم والعبد والسيد وغيرها , لأن هذه هي المعاني المعروفة لـ(المولى).

ونحن نسلم بان احدى معاني (المولى) الصديق والمحب والناصر , الا ان ثمة قرائن عديدة تثبت ان المولى في الحديث اعلاه تعني : (الولي والمشرف والقائد) ، وهي كما يلي بإيجاز :

1 - ان قضية محبة علي (ع) مع جميع المؤمنين لم تكن امرا خفيا وسريا ومعقدا , بحيث يحتاج الى هذا التأكيد والايضاح , وبحاجة الى ايقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة والقاء خطبة عليهم لأخذ الاقرارات من ذلك الجمع .

فالقرآن يقول بصريح القول : (انما المؤمنون اخوة) الحجرات / 10. وفي موضع آخر يقول : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض) التوبة / 71 .

والخلاصة , ان الاخوة الاسلامية ومودة المسلمين مع بعضهم من اكثر المسائل الاسلامية بداهة , حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الاسلام , وطالما اكد عليها النبي (ص) مرارا ، بالإضافة الى عدم كونها مسالة تحتاج الى بيان بهذا الاسلوب الحاد في الآية , وان يشعر النبي (ص) بالخطر من البوح بها !!

2 - ان عبارة : (الست اولى بكم من انفسكم) الواردة في الكثير من الروايات لا تتناسب ابدا مع بيان مودة عادية , بل انه يريد القول بان تلك الاولوية والتصرف الذي لي تجاهكم وانني امامكم وقائدكم , فانه ثابت

لعلي (ع) ، وان اي تفسير لهذه العبارة غير ما قيل فهو بعيد عن الانصاف والواقعية , لاسيما مع الاخذ بنظر الاعتبار جملة (من انفسكم) (انا اولى بكم من انفسكم).

3 ـ التهاني التي قدمها الناس لعلي (ع) في هذه الواقعة التاريخية , لاسيما التهاني التي قدمها ابو بكر وعمر , اذ انها تبرهن على ان القضية لم تكن سوى تعيين الخلافة التي يستحق التبريك والتهاني , فالإعلان عن المودة الثابتة لدى كل المسلمين بشكل عام لا يحتاج الى تهنئة . فقد جاء في مسند الامام احمد ان عمرا , قال لعلي بعد خطبة النبي (ص) : هنيئا لك يا ابن ابي طالب اصبحت وامسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة ، ونقرأ في العبارة التي ذكرها الفخر الرازي في ذيل الآية : (يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك) ان عمرا قال : هنيئا لك اصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة , وبهذا فان عمرا يعده مولاه ومولى المؤمنين جميعا ، وفي تاريخ بغداد جات الرواية بهذا الشكل : (بخ بخ لك يا ابن ابي طالب) ، وجاء في (فيض القدير) , و (لصواعق) , ان ابا بكر وعمرا باركا لعلي بالقول :ا مسيت يا ابن ابي طالب مولى كل مؤمن ومؤمنة .[1]

ومن نافلة القول : ان المودة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم , وهذا لا ينسجم الا مع الولاية التي تقضي الخلافة .

4. ان الشعر الذي ذكر آنفا عن (حسان بن ثابت) بذلك المضمون والمحتوى الرفيع , وتلك العبارات الصريحة والجلية شاهد آخر على هذا الادعاء .
5 . سائر آيات القرآن في تأييد حديث الغدير ، حيث روى كثير من المفسرين ورواة الحديث في ذيل الآيات الاولى من سورة المعارج : (سال سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع ـ من الله ذي المعارج) في شان النزول وخلاصته :

.....
.....

1. نفحات القرآن : الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : 118 / 1 .

ان النبي (ص) عين عليا (ع) خليفة يوم غدير خم وقال بحقه : (من كنت مولاه فعلي مولاه) , فما لبث ان انتشر الخبر , فجاء (النعمان بن الحارث الفهري) ـ وكان من المنافقين ـ الى النبي (ص) وقال : لقد امرتنا ان نشهد ان لا اله الا الله وانك محمد رسول الله , فشهدنا , ثم امرتنا بالجهاد والحج والصلاة والزكاة فقبلنا , فلم ترض بكل ذلك , حتى اقمت هذا الفتى (مشيرا الى علي (ع) خليفة لك , وقلت : من كنت مولاه فعلي مولاه فهل هذا منك ام من الله) ؟ قال النبي (ص) : (والله الذي لا معبود سواه انه من الله) , فالتفت اليه (النعمان بن الحارث) , وقال : (الهي ان كان هذا حقا منك فانزل علينا حجارة من السماء) ، وفجأة نزلت حجارة من السماء على راسه وقتلته فنزلت آية سال سائل بعذاب واقع .

ما ورد اعلاه يطابق الرواية التي نقلت في مجمع البيان عن ابي القاسم الحسكاني ، وقد نقل هذا المضمون الكثير من مفسري اهل السنة ورواة الاحاديث مع شيء من الاختلاف , مثل : القرطبي في تفسيره المعروف , والالوسي في تفسير روح المعاني , وابوا اسحاق الثعلبي في تفسيره ، وغيرهم الكثير .[1]

مقاصد وأهداف النبي (صلى الله عليه وآله) في خطبة الغدير

وتتلخص أهم مقاصد النبي (صلى الله عليه وآله) في خطبة الغدير بالأمور التالية:

1. ضمان استمرار خط النبوة وعدم ضياع ثمرات أتعاب النبي (صلى الله عليه وآله) خلال ثلاث وعشرين عاماً في إبلاغ الرسالة الإلهية ، وإنشاء الأمة وجهاد أعدائها ، وذلك بتعيين من يتولى حمل الأمانة وإدامة المسيرة النبوية.

2. بيان النبي (صلى الله عليه وآله) للأمة أن مسؤولية حفظ الإسلام وأمته تقع على عاتق خلفاء النبوة الذين اختارهم الله تعالى، والذين لهم الكفاءة التامة لأداء مهمَّتهم.

3. تعيين الخليفة تعييناً رسمياً على سنة الله في أنبيائه (عليهم السلام) ، وسنة الأمم الراقية في تعيين خليفة قائدها.

4. رسم المنهج السياسي للمسلمين إلى يوم القيامة.

5. اتمام الحجة على المخالفين ، المقصرين منهم والمعاندين.

هذه الأهداف السامية والمقاصد العالية هي التي أعطت يوم الغدير بُعده الخالد ، وجعلته حادثة فريدة في تاريخ الإسلام ، ومن أجل هذا كان تأكيد النبي (صلى الله عليه وآله) عليه كبيراً، وكما قال الإمام الباقر (عليه السلام) : (لم يناد بشيء ما نودى بالولاية يوم الغدير) .[2]

.....

1. **ينظر ما تقدم من المصادر التي ذكرت في صفحات التقرير ، و الغدير: 1 / 370- 383.**
2. **أصول الكافي : 2 / 21 - ح 8.**

مميزات يوم الغدير وعظمته

يمكن تصوير عظمة يوم الغدير من مجموع رواياته بما يلي :

1. اقترن إبلاغ النبي (صلى الله عليه وآله) للأمة ولاية علي (عليه السلام) بظروف ومميزات خاصة ، مثل الاجتماع الكبير، والأسلوب الخاص في البيان ، والمنبر الخاص الذي تفرَّدت به هذه الواقعة التاريخية ، وأنها

تزامنت مع وداع النبي (صلى الله عليه وآله) لأمته ، وهي خصوصيات فريدة تدل على حرص النبي (صلى الله عليه وآله) على تحصين الإسلام به من أي تحريف داخلي أو عدوان خارجي.

2. لم يطرح النبي (صلى الله عليه وآله) قضية الإمامة في يوم الغدير وبعده بصورة توجيهات ونصيحة ، بل بصورة حكم الهي وأمر نبوي، ولذلك اقترن إعلانها بأخذ البيعة لعلي (عليه السلام) من جميع المسلمين.

3. تميَّز إعلان الغدير بظرفه الجغرافي في ملتقى الطرق في (الجحفة) ، قبل أن يتفرق المسلمون في طريق عودتهم إلى أوطانهم ، وبالصيف الحار الذي كان في تلك الأيام الثلاثة في تلك الصحراء الملتهبة .

4. الظرف الزماني لبيعة الغدير ووقوعها في موسم الحج الذي هو أعظم تجمع جماهيري للمسلمين.

5. إعلان النبي (صلى الله عليه وآله) فيها عن قرب رحيله ، فإنه (صلى الله عليه وآله) رحل من هذه الدنيا بعد سبعين يوماً من إلقائه هذه الخطبة.

6. نزول الخطاب الإلهي الخاص للنبي (صلى الله عليه وآله) بهذا الأمر : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس)،[1] وهو خطاب يختلف عن سائر الخطابات الإلهية للرسول (صلى الله عليه وآله).

7. ضمن إبلاغ هذا الحكم الإلهي أبدى النبي (صلى الله عليه وآله) توجُّسه وخوفه من مؤامرات المنافقين في تلك المرحلة ، وتأكيده على أن هذه البيعة هي الضمان لمستقبل الأمة الإسلامية.

8. رافق إعلان النبي (صلى الله عليه وآله) لإمامة علي والعترة (عليهم السلام) ، الوعد الإلهي بعصمته وحفظه من كيد الأعداء المعترضين . وهما ضمان وعصمة لا نجدهما طيلة عمر النبي (صلى الله عليه وآله) وتبليغه الرسالة!

9. تميَّزت خطبة الغدير وبيعة الغدير بمفاهيم سامية ومعان عميقة في مقام الولاية للعترة النبوية الطاهرة (عليهم السلام).

10. تميَّزت بيعة الغدير بمراسيمها الخاصة قبل الخطبة وبعدها ، مثل إهداء النبي (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) عمامته الخاصة ، وأمره المسلمين بتهنئته وبيعته.

11. تميَّز يوم الغدير بنزول الخطاب الإلهي الخاص بعد بيعة الأمة لعلي (عليه السلام) : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً)،[2] وهو خطاب لا مثيل له في الخطابات الإلهية السابقة.

12. تميَّزت بيعة الغدير باهتمام خاص من أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم في كل الأجيال. فقد صعد المنبر أمير المؤمنين (عليه السلام) في خلافته وطلب من الصحابة أن يؤدوا شهادتهم في بيعة الغدير، ليعرف ذلك المسلمون الذين لم يحضروها.[3] وكذلك الصديقة فاطمة الزهراء (عليها السلام) حيث قالت : (ما علمت أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) ترك يوم الغدير لأحد حجة ولا لقائل مقالا) [4] ، وكذلك بقية الأئمة المعصومين (عليهم السلام). إن هذه الميزات الضخمة تدل على الأهمية العظيمة للغدير في ثقافة الإسلام ، وتثير فينا روح الغيرة على الإسلام لكي نحافظ على هذا الأصل العقائدي الرباني النبوي ، وندافع عنه بكل كياننا.

.....

1. **المائدة: 67.**
2. **المائدة: 3.**

3. بحار الأنوار: 31 /447، و 37 / 199، وينظر: الغدير : 1 / 93.
4. بحار الأنوار: 28 / 186، و 43 / 161وينظر: إثبات الهداة: 2 / 115والخصال : 173.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

1. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات :الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي - مؤسسة الاعلمي للمطبوعات - ط1 -2004.
2. احقاق الحق وازهاق الباطل : القاضي السيد نور الله الحسيني المرعشي التستري- الناشر: مكتبة أية الله العظمى المرعشي النجفي-ط1 .
3. الارشاد في معرفة حجج الله على العباد: الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان البغدادي -مؤسسة ال البيت عليهم السلام لإحياء التراث -ط1- 1995
4. أسنى المطالب(مناقب الاسد الغالب ممزق الكتائب و مظهر العجائب) : شمس الدين محمد الجزري – د. ت.
5. بحار الأنوار : الشيخ محمد باقر المجلسي - مؤسسة الوفاء -دار إحياء التراث العربي - بيروت – لبنان –ط3–1983 م
6. البداية والنهاية : لأبي الفداء لابن كثير الدمشقي - 2010 م
7. تاريخ الطبري : لأبي جعفر بن جرير الطبري –تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم –ط2 –دار المعارف – مصر
8. تذكرة خواصّ الأمّة : لسبط ابن الجوزي -الناشر: دار العلوم - بيروت- ط1 - 2004 م
9. . تفسير الحبري : الحسين بن الحكم بن مسلم الحبري الوشاء الكوفي-المحقق : السيد محمد رضا الحسيني الجلالي –نشر: موقع تحقيقات السيد محمد رضا الحسيني الجلالي .
10. خصائص أمير المؤمنين (عليه السلام) : أحمد بن شعيب النسائي - مكتبة المعلاّ - الكويت - 1986 م.
11. الخصال : الشيخ الصدوق ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي -الناشر: مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسيين بقم المشرفة.
12. دلائل الصدق لنهج الحق : الشيخ محمد حسن المظفّر- تحقيق ونشر: مؤسسة ال البيت عليهم السلام لإحياء التراث –ط1 – 2003م
13. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي -المحقق: علي عبد الباري عطية- الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ط1- 1995م
14. شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد المعتزلي - تحقيق: محمد ابراهيم - دار الكتاب العربي - دار الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع - ط1 – 2007م
15. شواهد التنزيل لمن خص بالتفضيل : الحافظ عبيد الله بن أحمد المعروف بـ (الحاكم الحسكاني) - تحقيق محمد باقر المحمدوي - طبع ونشر : مؤسسة الأعلمي –بيروت
16. صحيح مسلم : مسلم بن حجاج الزبيدي- دار طيبة – 2006م
17. عبقات الأنوار في امامة الائمة الاطهار: للسيد حامد حسين الهندي- طبعة مطلع الأنوار – الهند - 1897م
18. الغدير في الكتاب والسنة والادب : العلامة الشيخ عبد الحسين الاميني -مؤسسة الاعلمي للمطبوعات-ط1 – 1994 م
19. الفصول المختارة : أبوعبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الشيخ المفيد - تحقيق السيد علي مير شريفي دار المفيد طباعة – ط2- 1994 م
20. فضائل الصحابة : أحمد بن حنبل- الناشر: جامعة أم القرى – ط1 -1983 م

21. الكامل في التاريخ : عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد المعروف بابن الأثير الجزري- صحح أصوله عبد الوهاب النجار بالقاهرة- إدارة الطباعة المنيرية- 1938م.
22. لطائف اخبار الاول فيمن تصرف في مصر من ارباب الدول : محمد بن عبدالمعطي الإسحاقي - مكتبة الإيمان- 2000م
23. المراجعات : للسيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي–مؤسسة الوفاء –شبكة الفكر –وقف مكتبة احمد بدر يعقوب .
24. مسند أحمد : أحمد بن محمد بن حنبل -دار إحياء التراث العربي - 1993م
25. المناقب : الموفق بن احمد المكي الخوارزمي - تحقيق: الشيخ مالك المحمودي- مؤسسة النشر الاسلامية-ط2 -1991م
26. نظم المتناثر من الحديث المتواتر : ابو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني –دار الكتب السلفية للطباعة والنشر –مصر ط2-
27. النور المشتعل من كتاب ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين عليه السلام : الحافظ أبو نعيم الأصبهاني - جمع وترتيب :الشيخ محمد باقر المحمودي -وزارة الارشاد الاسلامي – ط1- 1986 م

محاضرات في العقائد - المرحلة الثالثة – قسم علوم القرآن

مبحث الإمــامـــة

توطئة :

لقد حظيت مسالة الإمامة - ولا زالت – باهتمامٍ بالغٍ وبموقعٍ متقدمٍ من منظومة العقيدة الإسلامية ، إذ مثّل الخلافُ حولها المشكلة الحقيقية التي واجهت المسلمين بكل قوة ، وعَقَدَت الواقع الإسلامي بأكثر من عقدة ؛ لأنها تتصل بالعمق الفكري والعقدي والتشريعي لمسألة القيادة في الإسلام، ولِما لها من امتدادٍ طبيعي ومسؤولٍ فيما بعد النبوة ، ولهذا فقد كانت محط اختلافٍ وتنازعٍ وتطاحن ، حتى قال الشهرستاني : (وأعظمُ خلافٍ بين الأمة خلافُ الإمامة ، إذ ماسُلَّ سيفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلّ على الإمامة في كل زمان) ، بل وأكثر من ذلك فقد تجاوز النزاعُ والخلافُ فيها إلى التعدي على الحُرمات نتيجة (تنازع القوم على منصب الخلافة تنازعاً قل أن نجد له مثيلاً في الأمم الأخرى ، فترتب على ذلك أن أُزهقت أرواح ودُمرت مدن ، وأُحرِقَت دور ورُمّلت نساء ويُتّمَت أطفال وهلك من المسلمين خلق كثير) ، وكان وبال أمر ذلك الخلاف أن (فرّق الأمة وأذهب وحدتها) ؛ لذا فإن الأئمة الطاهرين لم يتركوا هذا الأمر إلا وأشبعوه دعماً وتأصيلاً وتفصيلاً وأهمية ؛ لما له من موقع متميز في

مسيرة الإسلام ، يقول الإمام الرضا (ع) : (هل يعرفون قدر الإمامة ؟ الإمامة اجلّ قدراً ، وأعظم شأناً ، وأعلى مكاناً ، وأوسع جانباً، وابعد غوراً ، من أن يبلغها الناس بعقولهم ...) ، وهذا بيان واضح في رد كل اختلاف يقع في أمر الإمامة ، فهي ركن من أركان الدين ، بل هي الأساس الذي يرتكز عليه ، فلا ينبغي لأحد ان يتنازع عليها أو يختلف فيها .

كما أن القرآن الكريم قد طرح هذا المسألة كمفهوم عام بشكل واضح لا يقبل التناقض ، ونلحظ ذلك في قوله تعالى:(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ، وقوله تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَام الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) ، وإلى غيرها من الآيات التي صرحت بمسألة الإمامة .

الإمامة العامة :

إطلالة على معنى الإمامة ، وهل أنها أصل أم فرع ؟

أولا: معنى الإمامة :

1- المعنى اللغوي : تعني الإمامة لغةً : تقدم شخص من الأشخاص على الناس يكون فيها مُتبعاً ، ويقتدون به ، فهو المقتدى المتقدم ، والى هذا أشار أصحاب المعاجم اللغوية ، ففي المفردات : الإمام (ع) : المؤتم به ، إنساناً كان يقتدى بقوله أو فعله ، أو كتاباً أو غير ذلك ، محقاً كان أو مبطلا ، وجمعه أئمة ، وقوله تعالى : (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) أي : الذي يقتدون به . ، وفي الصحاح : الإمام الذي يقتدى به ، وجمعه أئمة ، وأممت القوم في الصلاة إمامة ، وإئْتم به ، إقتدى به ، وفي لسان العرب : أمّ القوم ، وأمَّ بهم : تقدمهم ، وهي الإمامة . والإمام : كل من إئتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين ، قال ابن سيدة : والإمام ما أئتُم به من رئيس وغيره ، والجمع أئمة ، أو (أن يكون اللفظ مأخوذاً من

لفظ الأمام – بفتح الهمزة – بمعنى : القدّام عكس الخلف . ويحتمل أن يكون مأخوذاً من الأُم – وأم الشيء أصله – فكأن إمام القوم أصلهم وهم تبع له ، ويمكن أن يكون مأخوذاً من الأَم بمعنى القصد ، لكونه يقصد .، وهكذا نجد المعنى منصرفاً إلى القيادة والائتمام بشكل واسع عند معظم اللغويين.

إذاً نستنتج من ذلك أن الإمامة لغة تشير إلى المفهوم الواسع الأعم لشموليته واستيعابه .

2- المعنى الإصطلاحي :

أما في المفهوم الاصطلاحي – كما سنرى – فإنها تعطي مدلولاً خاصاً يتحدد في مهام الإمام ومسؤولياته التي أنيطت به من قبل الله سبحانه وتعالى .

على أن هذا الائتمام وهذه القيادة متعلقة بشخص الإمام من حيث الهداية أو الضلالة ؛ لأن المراد من الاقتداء هو الوصول إلى غاية معينة من خلال القصد والسلوك ، وعليه سيكون الإمام حلقة الوصل في إيصال الناس- وحسب الحقبة الزمنية – إما إلى الهدى وإما إلى الضلال ، وهذا متحقق من خلال قوله تعالى : (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ).وقد أوضح الإمام الصادق (ع) هذا المعنى بقوله : (إن الأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان ، قال الله تبارك وتعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) لا بأمر الناس ، يقدمون أمر الله قبل أمرهم ، وحكم الله قبل حكمهم . وقال :(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ إلى النار) يقدمون أمرهم قبل أمر الله ، وحكمهم قبل حكم الله ، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله) .وهكذا يحدد الإمام الصادق (ع) وظيفة الإمام ومسؤولياته الخطيرة ؛ باعتباره المقتدى به ، فوجب بذلك التمييز بين قادة الحق الذين يكون معيار عملهم هو رضا الله وتنفيذ أحكامه وبين قادة الباطل الذين يكون أساس عملهم الأهواء والرغبات الشيطانية .

الإمامة في الاصطلاح :

وللأهمية الكبرى لمسألة الإمامة وماهيتها وكنهها ، وأنها الجعل الإلهي للإنسان ، وانه مسجود له من قبل الملائكة ، فقد تضاربت الأقوال والآراء في إعطاء الإمامة الوصف الاصطلاحي الذي يمكن أن ينطبق عليها ، فكل فرقة تحاول أن تصف الإمامة بالوصف الذي يخرجها الى تمام معناها ، وتحاول – بكل ما أوتيت من قوة – أن تترجم الثقل الذي طرحه رسول الله (ص) في حديثه :(من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية) إلى ارض الواقع .

وبإلقاء الضوء على ماهية الإمامة عند أتباع مدرسة الخلفاء نجدها تختلف عنها عند أتباع مدرسة أهل البيت (ع) ، فالرأي الأول يرى أنها لا تخرج عن كونها (خلافة الرسول في إقامة الدين بحيث يجب إتباعه على كافة الأمة) وأنها: (خلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا)، وهذا الوصف نجده عند كثير من علمائهم . وكل هذه التعاريف والمصطلحات لا تنهض بواقع الإمامة وحقيقتها من حيث هي جعل من الله سبحانه بشموليتها المطلقة واستيعابها للأمة وقصارى القول : أنها تكشف عن جانب منها لا أكثر ، يكمن في المسؤولية الظاهرية فقط والتي يقصرونها على إدارة شؤون الدولة الإدارية والعسكرية والقضائية ، يقول القاضي عبد الجبار :(الإمام من له الولاية على الأمة والتصرف في أمورهم على وجه لا يكون فوق يده يد) ، وهذا التصريح يكشف عن أن دور الإمام دوراً محورياً يحقق للمجتمع ما رسمه الله تعالى من تحصيل الكمالات الإنسانية من خلال وظيفة الإمام ودوره كقائد ومعلم حقيقي للمجتمع ، وحامي الشريعة الإسلامية التي يتحقق بها العدل الإلهي وإماطة الجور وتحقيق السعادة الدنيوية والأخروية للإنسانية جمعاء .

أما مفهوم الإمامة عند الامامية – أتباع مدرسة أهل البيت- (ع) ، فيختلف تماماً عن نظيره عند علماء العامة - أتباع مدرسة الصحابة – فالامامية – يعتبرونها أعلى مرتبة واشمل غاية من الزعامة والحكومة عند الناس ؛ لان الإمام هو الامتداد الطبيعي للنبي(ص) . يقول الشيخ المفيد في وصف الأئمة : (إن الأئمة القائمين مقام الانبياء في تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود ، وحفظ الشرائع ، وتأديب الأنام ...) ، وبهذا يتضح أن

جميع واجبات الانبياء- سوى تلقي الوحي – ثابتة للائمة (ع) .ويصرح العلامة الحلي بحقيقة الإمامة من خلال تعريف الإمام فيقول :(الإمام : هو الإنسان الذي له الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا وبالأصالة في دار التكليف). وهذا التقييد بالأصالة يبين أن الإمامة منزلة كبرى وسلطة عظمى يقررها الباري عز وجل ولا احد سواه ، سواء كان نبيا أو مرسلاً ، إذ (أن سلطنة الباري عز وجل تكون أولا وبالذات ، ثم تترشح لمن يشاء)؛ لذا فقد اتصف الأئمة بجميع الصفات التي يحملها الانبياء(ع) بما منحهم الله سبحانه من الملكات التي تعصمهم من الخطأ ، وهذا ما تحتاجه الأمة .

ومن هنا جاء اصطلاح الإمامة ليؤكد أنها : (منصب إلهي حائز لجميع الشؤون الكريمة والفضائل إلا النبوة وما يلزم تلك المرتبة السامية) ، وأنها (الزعامة الإلهية والرئاسة الربانية على الناس ، والإمام هو الزعيم والمقتدى في أمور الدين والدنيا ، فهو القوة المجربة لأحكام الله تعالى وتدبيراته في خلقه من حيث التشريع ، فتكون رئاسته من الحق وبالحق) ، وبهذا المنطلق يتمحور مفهوم الإمامة - عند الإمامية – بأنه (فرع النبوة ، وكلاهما من واد واحد ، باعتبار نيابتهما عن الله تعالى في تبليغ الأحكام ، غير أن النبي له مقام النيابة رأساً من غير واسطة بشر اصلاً، أما خليفته نائب عن الله تعالى بواسطته) .

3- مفهوم الإمامة عند الائمة الطاهرين(ع) :

إن المفاهيم التي يطلقها علماء الامامية على منظومة الإمامة ، إنما هي مستمدة من أئمتهم (ع) ، اذ أرسوا دعائم هذه المنظومة ؛ باعتبارهم سفراء الله في خلقه ومنفذو أحكامه .

وأروع تعبير في وصف الإمامة ، ما ورد عن أمير المؤمنين (ع) من خلال وصفه للائمة (ع) بأنهم : (قوام الله على خلقه وعرفاؤه على عباده ، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه ، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه)، وهذا صريح في دوام وجود الإمام واستمراره باستمرار زمان القائم على الخلق ، ولا يمكن أن يكون غائباً عنهم أو غير عارف بأحوالهم

، وهذا الأمر سارٍ حتى في الدار الآخرة ، إذ أنهم (ع) أصحاب الأعراف الذين يعرفون الناس يوم القيامة ، وهذا ما أوضحه الإمامان الباقر والصادق (ع) في احتجاجهما بقوله تعالى : (وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ)، قالا : (نحن اولئك الرجال ، الأئمة منا يعرفون من يدخل النار ومن يدخل الجنة) . وأمر ثانٍ يثبته قوله تعالى : (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) ، فان الآية تشير الى أن الإمام إما أن يدعو الى الهدى وإما أن يدعو الى الضلال ، وهذا ما أشار إليه الإمام الحسين (ع) - عندما سئل عن الآية - بقوله :(إمام دعا الى هدى فأجابوه إليه ، وامام دعا الى ضلالة فأجابوه اليها ، هؤلاء في الجنة ، وهؤلاء في النار ، وهو قوله عز وجل : (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) ، وهذا نتيجته (أن أهل كل عصرٍ لا يدخلون الجنة إلا بمعرفة إمامهم من العترة الطاهرة (ع) معرفة حق ولايتهم ، وصدق إمامتهم ، ومعرفة الإمام لهم بالتصديق والمتابعة). ووصف آخر يعطيه الإمام الحسين (ع) لمفهوم الإمامة في غاية الدقة من خلال تأكيده على أن الإمام : هو الذي لا يفارق القرآن ولا القرآن يفارقه ، وانه من خلال ذلك يعمل بالقسط ويجسد العدل في الأرض لا تأخذه في الله لومة لائم فيقول :(فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب ، والقائم بالقسط ، والدائن بدين الحق ، الحابس نفسه على ذات الله). وتتابعت كلمات الأئمة (ع) واحتجاجاتهم على أن الإمامة أمر إلهي وانه ذو أهمية بالغة ، وهذا ما يصفه لنا الإمام الرضا (ع) في إعطائه الصورة الناصعة التي يريدها الله عز وجل للإمامة فيقول :(إن الإمامة اجل قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً ، وأمنع جانباً، وابعد غوراً،من أن يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا اماماً باختيارهم) ، فهم – الناس- قاصرون عن أن يُعطوا للإمامة الوصف الكامل والمرتبة المختارة ؛ لأن الإحاطة بحقيقة الإمامة وسبر غورها ومعرفتها كمعرفة سائر الأمور شيء غير مطاق لنا ؛ لان الإمامة والنبوة مظهر لصفات الله تعالى ، ومثال لكمالات الخالق سبحانه ، ومن يحيط خبراً بكماله العظيم وصفاته القدسية) ، وواضح من كلام الإمام الرضا (ع) ان الذي عنده الإحاطة الشاملة بمفهوم الإمامة ومعرفة الإمام حق معرفته هو الله سبحانه ونبيه والأئمة الهداة ؛ لأنها المنزلة العظمى والمرتبة الكبرى التي أكد عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَإِذْ ابْتَلَى

إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) ، إذ أن الجعل الإلهي هو الذي يحدد ماهية الإمامة وتعريفها وهي عهد من الله سبحانه .

وقد احتج الإمام الرضا (ع) بهذه الآية كونها الدليل القاطع على ان الذي يتولى زمام أمور الدين هو المجتبى من قبل الله عز وجل ، فقال (ع) :(إن الإمامة خص الله عز وجل بها إبراهيم الخليل (ع) بعد النبوة ، والخلة مرتبة ثالثة ، وفضيلة شرفه بها ، واشاد بها ذكره ، فقال : (وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ..... الآية ، فقال الخليل (ع) سرورا بها : ومن ذريتي ؟ قال الله تبارك وتعالى : (لا ينال عهدي الظالمين) ، فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم الى يوم القيامة ، وصارت في الصفوة).

على ان الإمام الصادق(ع) قد احتج بالآية نفسها ، فقال : (وبجعله تعالى لإبراهيم (ع) اماماً صار قدوة مفترض الطاعة) ، وفي حديث آخر –في إطار الآية نفسها – قال (ع): (لا يكون السفيه إمام التقي) ، (وان الله عز وجل قد وعده – أي إبراهيم – بأنها - الإمامة- إنما هي في ذريتك لا تكون في غيرهم) وهكذا يتضح مفهوم الإمامة لدى الأئمة الأطهار (ع) ، وان الهدف من ورائه هو حماية الإسلام وقيادة المعصوم للنفوس وإيصالها الى المقامات المعنوية والكمالية (في الدين والدنيا المنبعثة عن كمال نفسه المقدسة من شؤونها الروحانية وساطتها للفيض وكونها مجرى الفيض النازل من سماء وعالم الربوبية) ( ) ، وهذا المفهوم الواسع لا يتجسد ، وليست له واقعية إلا في الأئمة ، يقول الإمام الصادق في قوله تعالى : وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ ( ) : (هم الأئمة) ( ) ، فهذا الوعد الإلهي الذي ارتضاه الباري عز وجل للمؤمنين في الأرض هو ترسيخ لدعائم الدين بشرط ان يكون مقترناً بالائمة وعدم فصله عن ولايتهم .

ثانياً : هل الإمامة أصل أم فرع ؟:

سبق وان بينا أن الإمامة هي خلافة الله سبحانه على الأرض لشخص مؤهل لحمل أعبائها ومؤسس للحكم الإلهي ،وهو ما اقتضته الحكمة الإلهية

من اجل هداية البشر والاخذ بأيديهم الى بلوغ الكمالات والدرجات العلى ؛ ولهذا كانت الإمامة المحور الرئيس لإكمال رسالة الانبياء ، فهي – الإمامة- (ليست قضية مصلحيه تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ،وهي ركن الدين ، لا يجوز للرسل إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه الى العامة) ( ) ، فإذا كانت هذه الخلافة وهي الإمامة بهذا القدر من الأهمية ، فهل يا ترى تكون أساس الدين وأصله ، أم أنها إحدى فروعه ؟وهنا يوجد اتجاهان :

الاتجاه الأول : يمثله أهل السُنة ، إذ يعتبرونها ضمن فروع الدين وأن (النظر فيها ليس من المهمات ،وليس من فن المعقولات – بمعنى انه ليس من العقائد – بل من الفقهيات) ( ) بل ويحاولون تفنيد الرأي الآخر القائل بأنها الركن الأساسي في الدين ، يقول ابن خلدون :(وشبهة الامامية ..إنما هي كون الإمامة ركن من اركان الدين كما يزعمون ،وهي ليس كذلك)( ) ، وكذا ما صرح به جملة من أعلامهم ، كالجويني ( ) والإيجي ( ) ،والتفتازاني ( ) ،والجرجاني ( ) ،وابن تيمية ( ) . بل ذهبوا الى أدنى من ذلك ، اذ منعوا الخوض ومداولة الكلام فيها ؛ لأنها (مثار للتعصبات ، والمعرض عن الخوض فيها اسلم من الخائض فيها وان أصاب فكيف إذا أخطا).( )

الاتجاه الثاني : ويمثله الشيعة الامامية معتبرين الامامة (أصل من أصول الدين لايتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها) ( )

وتبعهم في ذلك بعض علماء السنة مثل القاضي البيضاوي الذي اعتبرها من الأصول ، ومخالفتها بدعة ( ) ، وان هذا الأصل –الإمامة – هو جعل من الله ، يقول الشيخ الصدوق :(يجب أن يعتقد أن الإمامة حق كما أن النبوة حق)( ) ، أي أن الإمامة هي صنو النبوة ، فكما أن الإقرار بالنبوة ، وأنها أصل من أصول الدين ، فكذلك الإمامة . وقد تمسكوا بهذا الأمر واعتبروه أصلاً(لأنهم علموا ان بقاء الدين والشريعة موقوف على وجود الإمام ،كما ان وجود حدوث الشريعة موقوف على وجود النبي ، فحاجة الدين الى الإمام بمنزلة حاجته الى النبي) .( ) وهذا كاشف عن أن هذا الأصل هو تأكيد من الله سبحانه على أهمية وجود الإمام بعد النبي،

يقول التيجاني :(من أعظم عقيدة الشيعة في القول بان الخلافة أصل من أصول الدين ، وما أعظم قولهم بان هذا المنصب هو باختيار الله سبحانه ، فهو قول سديد ورأي رشيد يقبله العقل ويرتاح إليه الضمير وتؤيده النصوص من القران والسنة).( )

ولاشك ان الإيمان بان الإمامة أصل هو (الذي امتازت به الامامية وافترقت عن سائر فرق المسلمين ، وهو فرق جوهري أصلي وما عداه من الفروق فرعية عرضية) ( ) ،وهكذا ، فان الإيمان بالسبب المتصل بين الأرض والسماء لم ينقطع بعد وفاة النبي، وان الحاكمية السياسية والتشريعية ، والولاية المطلقة في قيادة العباد لازالت قائمة في تدبير النظام الاجتماعي وتنظيم شؤون العباد ،وهذا المعنى مأخوذ من أئمة الهدى ، إذ يقول الإمام الرضا : (ان الإمامة زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا ،وعز المؤمنين . ان الإمام أس الإسلام النامي ، وفرعه السامي ...) ( ) ، فالنظام الكوني قائم بوجود الإمام ؛ لأنه محور الحياة ،وهو الذي يدفع عجلتها الى الارتقاء نحو الكمالات العليا ،وهذا ما أكده النبي الأكرم عندما اخذ بيد علي قائلاً: (إنما أنت منذر ، ثم ضم يده الى صدره ، فقال : ولكل قوم هاد ، ثم قال : يا علي أنت أصل الدين ومنار الإيمان وغاية الهدى وقائد الغر المجلين ، اشهد لك بذلك) ( ) ، ومن البديهي أن يكون المنذر للعالمين حاملاً لأسباب ومقومات الهداية بعد الإنذار ، إذ تتجلى بعض مصاديقها بالعلم الواسع الذي يتمتع به هذا الهادي وهو الإمام . وتتجلى مصاديق الهداية في أن الإمام هو الذي أحصى الله عز وجل فيه كل شي ، فيكون المتعين انه (إمام الحق خاصة ، وهو الذي يجتبيه الله سبحانه في كل زمان لهداية أهله) .

وهذا ما أكده الإمام الباقر بقوله :(لما نزلت هذه الآية على رسول الله :وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ( ) ، قام رجلان من مجلسهما فقالا : يا رسول الله ، هو التوراة ؟ قال : لا ، قالا: فهو الإنجيل ؟ قال :لا ، قالا: فهو القرآن ؟ ، قال : لا ، قال : فاقبل أمير المؤمنين علي ، فقال رسول الله : هو هذا ، انه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء ( ).( )

كما إن الإمام أمير المؤمنين قد صدع بهذا الأمر مبيناً من هو الإمام المبين في الآية نفسها ، فقال :(أنا والله الإمام المبين ، أبين الحق من الباطل ،ورثته من رسول الله) ( ). وما أعظمه أن يكون ميزاناً بين الحق والباطل ، فانه النظام المتكامل بعينه ، وقد إبان النبي عن مضمون الآية الكريمة ومدى تعلقها بأمير المؤمنين فقال: (معاشر الناس ، ما من علم إلا علمنيه ربي وأنا علمته علياً ، وقد أحصاه الله فيَّ وكل علم علمتهُ فقد أحصيته في إمام المتقين ، وما من علم إلا علمته علياً)( ).يقول السيد الطباطبائي في المراد من الإمام المبين : انه (إمام الحق خاصة وهو الذي يجتبيه الله سبحانه في كل زمان لهداية أهله بأمره ، نبيا كان كإبراهيم ومحمد Hأو غير نبي) ( ) ؛ ولذا فان الأئمة يؤكدون دوماً ان للإمام مقاماً ملكوتياً يوجب بمقتضاه التصرف في الشؤون كافة ؛ باعتباره رأس النظام وسنامه ، والقطب الذي يدور عليه ذلك النظام الذي جعله الله للعباد ، يقول الإمام علي (والإمامة نظاماً للأمة) ، وفي موضع آخر يقول :(الإمامة نظام الأمة) ( )، ولم يقتصر توضيح هذا الأمر على الأئمة الأطهار فحسب وإنما كانت دائرته اوسع وأشمل ، فكانت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراءحاضرة وبكل شموخ لتعلن أن إتّباع من جعلهم الله عز وجل قادة بعد رسول اللهيؤدي الى ان تعيش الإنسانية بأمان ونظام متكاملين ، فقالت:(وطاعتنا نظاماً للملة ، وإمامتنا أماناً من الفرقة) ( ) ؛ لأن الإمام يحل حلال الله ، ويحرم حرام الله ، ويذب عن دين الله . وقد أبان الإمام علي عن واسع القدرة وعلو المكانة لأهل بيته في مواضع عدة من كلماته ليكشف عن عظيم منزلتهم ، وأنهم المرجعية العليا في الدين وقيادة المجتمع ، إذ يقول :(فأين يتاه بكم ، بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم ، وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق. .)( ) وتعتبر إطاعة الإمام بعد معرفته أساس الدين وقوام الشريعة ، اذ بالمعرفة الحقة للإمام يمكن ان يتجنب الإنسان الوقوع في المنزلق الخطير وهو ميتة الجاهلية ، فعليه والحال هذه ان يدين بكامل الولاء والطاعة لمن هو أساس الدين بل أساس الوجود كله ، وقد أشار الإمام الباقر الى هذا المعنى بقوله :(بني الإسلام على خمسة أشياء : على الصلاة ، والزكاة ، والحج ،

والصوم ، والولاية ، قال زرارة ، فقلت : وأي شيء من ذلك أفضل ؟ فقال : الولاية أفضل ؛لأنها مفتاحهن ،والوالي هو الدليل عليهن ، ثم قال : ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه ، وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته،إن الله – تعالى- يقول : مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ( ) ( )

وكل هذا يتجسد في قول رسول الله إلى من هم حفظة الدين ونظام الملّة وقطب الإسلام وصلاح الدنيا :(أسمعوا وأطيعوا لمن ولاّه الله الأمر ، فانه نظام الإسلام) ( ). وجاء بتعبير آخر عنه :(إني واثني عشر من ولدي وأنت يا علي زر الأرض ، يعني أوتادها وجبالها ، بنا أوتد الله الأرض أن تسيخ بأهلها فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم ينظروا) .( )

وجوب الامامة وطرق إثباتها :

أولاً : وجوب الامامة :

بعدما اتضح لنا مقام الإمامة من خلال التعريف بها ، وإنها القيادة العليا والمرجعية الكبرى ، التي لا ينفك المجتمع عن تركها أو الاستغناء عنها ،وإنها ضرورية (ما دام الإنسان مزوداً بقوى شهوانية وعصبية من شأنها أن تبعث على الفساد فيختل النظام ويشيع الهرج والمرج ، فضلاً عما بين الناس من اختلاف الأهواء وتشتت الآراء وما بينهم من الشحناء) ( )،فان الله سبحانه قد ضمن للبشرية أن تنعم بنظام القرار الإلهي إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ( )، لكن الملائكة ردوا بقولهم :أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وهذا بيان واضح أن هناك إفساد في الأرض ،واختلال نظام ،وهذا ما أكده الإمام الصادق بقوله :(ما علم الملائكة بقولهم :أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ لولا انهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء ( ) ، وفي هذا الصدد يوضح السيد

الطباطبائي بجلاء ما عناه الإمام الصادق فيقول :(أقول : يمكن أن يشير بها إلى دورة في الأرض سابقة على دورة بني آدم هذه كما وردت فيه الأخبار)( ).

وبعد هذا البيان في أهمية الإمامة والخلافة في الأرض وتأسياً لما تقدم ، لابد ان نستعرض آراء الفرق الإسلامية في أمر الإمامة وهل هي واجبة أم لا ، وفي حال وجوبها ، فهل هي واجبة على الله سبحانه ، باعتبارها جعل منه ، أم واجبة على الخلق باعتبار آخر ؟ وكذلك إذا كانت واجبة فما هي الحكمة من وجوبها ؟ وما هي علة الاحتياج إليها ؟

ذهبت معظم فرق المسلمين إلى القول بوجوب الإمامة ( )وخالفهم في ذلك اغلب الخوارج

والأصم من المعتزلة ( ) وهشام الفوطي ( ) وضرار بن عمرو ( )،واختلف الموجبون لها في جهة وجوبها ، فمنهم من أوجبها سمعاً (شرعاً) ،ومنهم من أوجبها عقلاً ، فالقائلون بالوجوب سمعاً هم معتزلة البصرة والجبائيان أبو علي ( ) وأبو هاشم ( ) وجمهور أهل السنة ( ) مستدلين بقوله تعالى : أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ( ) أما القائلون بوجوبها عقلاً:فهم الشيعة الامامية ، ومعتزلة بغداد ، والجاحظ ( ) وأبو الحسين ( ) من معتزلة البصرة ( ) وانقسم هؤلاء إلى فريقين :

الأول : وهم معتزلة بغداد الذين قالوا بوجوبها على المكلفين من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية ورفع مضار دنيوية( ).

الثاني : وهم الامامية القائلون بوجوبها عقلاً على الله تعالى ( ) من حيث كونها لطفاً.

وبيان ذلك : (إن الناس إذا كان لهم رئيس مطاع مرشد فيما بينهم يدع الظالم عن ظلمه ، والباغي عن بغيه ، وينتصف للمظلوم من ظالمه ، ومع ذلك يحملهم على القواعد العقلية والوظائف الدينية ويردعهم عن المفاسد

الموجبة لاختلال النظام في أمور معاشهم ،وعن القبائح الموجبة للوبال في معادهم ، بحيث يخاف كل موأخذته على ذلك ،كانوا مع ذلك إلى الصلاح اقرب ، ومن الفساد ابعد ،ولا يغني اللطف إلا ذلك ، فتكون الإمامة لطفاً وهو المطلوب) ( ). كما ان وجوب الإمامة يكمن في أنها –الإمامة- (استمرار لفكرة النبوة ، فالدليل الذي يوجب على الله إرسال الرسل وبعث الأنبياء ، هو نفسه يوجب ايضاً نصب الإمام بعد الرسول).( ) ، كما ان اللطف الإلهي يكمن في (انه لا بد في كل زمان من إمام موجود يحتج الله عز وجل به على عباده المكلفين)( )، وبما أن من مظاهر اللطف الإلهي إرسال الرسل والأنبياء ، فان من مظاهره ايضاً وجود الإمام ، ونصب الإمام واجب على الله تعالى، والإمام لطف ،واللطف واجب ( ) ، وقاعدة اللطف من القواعد الكلامية والفقهية التي بنى عليها العلماء الكثير من المسائل الدينية .

وللتعرف على قاعدة اللطف الالهي نقف على معنى اللطف لغة واصطلاحا ، قال الفيروز آبادي :(اللطف بالضم من الله : التوفيق ، واللطيف :البَرُّ بعبادة ،المحسن إلى خلقه بايصال المنافع إليهم برفق ولطف).( ) . وجاء في مجمع البحرين :(لطف ،قوله تعالى :(وهو اللطيف الخبير) ( ) ، اللطيف من أسمائه تعالى ،وهو الرفيق بعباده ، يوصل إليهم ما ينتفعون به في الدارين ،ويهيئ لهم ما ينتسبون به إلى المصالح من حيث لا يعلمون، ومن حيث لا يحتسبون . واللطف في عرف المتكلمين : ما يقرّب من الطاعة ويُبعّد عن المعاصي ،ولاحَظّ له في التمكين ،ولا يبلغ الإلجاء ، لمنافاته للتكليف، كالجذب من الزنا إلى مجالس العلم . وقد يكون من الله ،كخلق القدرة للعبد وإكمال ، العقل ونصب الأدلة ، وتهيئة آلات فعل الطاعة ، وترك المعصية ، فيكون واجباً عليه تعالى).( )

أما اصطلاحاً : فقد عرّفه العلامة الحلي بقوله : (اللطف هو ما يكون المكلف معه اقرب إلى فعل الطاعة وابعد من فعل المعصية ،ولم يكن له حظ في التمكين ولم يبلغ حد الإلجاء ...، وهذا هو اللطف المقرب ، وقد يكون محصلاً : وهو ما يحصل عنده الطاعة من المكلف على سبيل الاختيار) ( )، واللطف المحصل عبارة عن القيام بالمبادئ والمقدمات التي

يتوقف عليها تحقق غرض الخلقة وصونها عن العبث واللغو بحيث لولا القيام بهذه المبادئ والمقدمات من جانبه سبحانه لصار فعله فارغاً عن الغاية ، و ناقض حكمته التي تستلزم التحرز عن العبث ، وذلك كبيان تكاليف الإنسان وإعطائه القدرة على امتثالها .( )

واللطف المقرب :عبارة عن القيام بما يكون لغرض التكليف بحيث لولاه لما حصل الغرض منه ، وذلك كالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، التي تستتبع رغبة العبد إلى العمل وبُعده عن المعصية .( ) وهكذا يبدو ان اللطف المحصل هو جعل المخلوق قادرا على القيام بأداء التكاليف التي من خلالها يتمكن الإنسان من نيل السعادة والتكريم الذي خلق من اجله ، وبدون تحصيل هذه السعادة فان خلقه يكون لغواً وعبثاً ، وصدور اللغو من الباري غير جائز ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أما اللطف المقرب ، فهو التوفيق الذي يحصل للإنسان والأسباب التي تقربه إلى الطاعة وتبعده عن المعصية ، من اجل أن يصل إلى الهدف المنشود وهو السعادة .

أما الشيخ الطوسي فينظر إلى (اللطف) من زاوية انه يدعو إلى فعل الواجب ويصرف عن القبيح ، ثم ينقسم قسمين : فان وقع عنده الواجب ولولاه لم يقع سميّ توفيقاً ، وان كان المعلوم انه يرتفع عنده القبيح سمي عصمة .( )

وقال المحقق الحلي :(وأما المصالح الدينية فإنها تنقسم إلى ما يقع عنده الطاعة ويسمى (لطفاً) بقول مطلق ، والى ما يكون المكلف معه اقرب إلى طاعة ويسمى لطفاً).( )

وفي هذا المقام وردت روايات عدة عن الأئمة المعصومين في العلة التي من اجلها بعث الله النبي والإمام ،وما علة وجودهم ، فعن جابر بن يزيد الجعفي ، قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي الباقر :لأي شيء يحتاج إلى النبي والإمام ؟ فقال : لبقاء العالم على صلاحه ؛وذلك إن الله عز وجل يرفع العذاب عن الأرض إذا كان فيها نبي أو إمام ، قال عز وجل :(وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)( ) ( ) .

ولا يقتصر الأمر عن دار الدنيا من حيث وجود النبي أو الإمام في صلاح بني آدم واستقامتهم بل تعدى ذلك إلى الدار الآخرة . ففيما ينقله الإمام الباقر عن جده رسول الله انه قال لبعض أصحابه :(حياتي خير لكم ومماتي خير لكم ، قالوا : أما حياتك يا رسول الله فقد عرفنا ، فما في وفاتك ؟ ، قال: أما حياتي فان الله يقول : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ( ) ، أما وفاتي فتعرض عليَّ أعمالكم فاستغفر لكم) ( ) ، قد أوضح النبي الأسباب الموجبة لوجود حجة الله على الأرض وانه أمان لأهله من كل ما يحيط بها من أخطار وبيان تأثير الإمام وضرورة وجوده في الكون ، وهذا ما أكده الإمام الباقر بقوله : قال النبي:(النجوم أمان لأهل السماء ، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض ، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون ، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون ، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته فقال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ( ) ( ) ، وعن الإمام الصادق عندما سأله أبو حمزة : تبقى الأرض بغير إمام ؟ قال :(لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت).( )

ومن شدة احتياج الخلق إلى وجود الإمام وضرورته لبيان الشرع ورعاية مصالح الأمة نرى أن الائمة الطاهرين يؤكدون على عدم خلو الأرض منه ، حتى لو لم يبق في الدنيا إلا الإمام ، وهذا ما صرح به الإمام أبو عبد الله الصادق قال :(لو كان الناس رجلين لكان احدهما الإمام) ( ) ، وقال :(إن آخر من يموت الإمام لئلا يحتج احدهم على الله عز وجل تركه بغير حجة عليه).( ) ،إذاً حتمية مسألة الإمامة ووجوب وجود الإمام هو لطف من الله سبحانه من اجل أن يستمر الإصلاح في الأرض ، وان ينال العباد السعادة في الدارين ، وان تسير قوافل الخلق وفق ما رسمه الله سبحانه وما أراده تعالى . ووجه ذلك يتم من خلال :

1- إن وجود الإمام يحفظ الشرائع ويحرسها عن الزيادة والنقصان .

2- إن اعتقاد المكلفين لوجود الإمام وتجويز أنفاد حكمه عليهم في كل وقت سبب لردعهم عن الفساد ولقربهم إلى الصلاح ، وهذا معلوم بالضرورة .

3- إن تصرفه لا شك انه لطف ، ولا يتم إلا بوجوده ، فيكون وجوده نفسه لطفاً وتصرفه لطفاً آخر .( )

يتحصل لدينا من خلال ما بيناه ان وجوب الإمامة يكمن في اللطف الإلهي الذي أسبغه الباري عز وجل على العباد بضرورة وجود الحجج على الخلائق وهو نعمة ورحمة منه تعالى ،وهو ينشعب إلى شعبتين : فلطف مقرب بحيث يبين سبحانه كل وسائل الهداية والطرق الواضحة كي يستطيع ان ينال السعادة في الدارين ، ويأتي ذلك من خلال ما بينه أئمتنا في أحاديثهم ، فعن ابي عبد الله في قوله عز وجل : وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ( ) ،قال :(حتى يعرّفهم ما يرضيه وما يسخطه) ( ) ،وفي قوله تعالى : فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ( ) قال :(يبين لهم ما تأتي وما تترك)( )، وفي قوله تعالى : إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ( ) قال :(عرّفناه ، إما آخذاً وإما تارك) ( ) وأكثر من هذا فالإمام ومن خلال هذه الآية – (إنا هديناه السبيل ....)- يحدد ما سيؤول إليه مصير الإنسان من الإيمان أو الكفر ، فيقول :(علم السبيل ، فإما آخذ فهو شاكر ، وإما تارك فهو كافر).( ) بل يزيد الإمام الأمر وضوحاً وتجلية ، فيؤكد أن الله عز وجل أضافه إلى تبصرة الإنسان إن هذا حق وذاك باطل ، فانه سبحانه يساعد الإنسان وينصره في سلوكه طريق الحق ، فيقول (ما من احد إلا وقد برز عليه الحق حتى يصدع قلبه ، قبِله ام تركه ،وذلك أن الله يقول في كتابه : بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ( ) ( ) ؛لان مفهوم الحق ثابت لا يزول بعكس الباطل وان تشبه بالحق ولو لحين ، لكنه يزول ، فالماء هو حقيقة ثابتة ، أما السراب الذي هو ليس بماء حقيقة إلا أنه يتشبه به ، ويحسبه الناظر الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وقد أشار الشيخ الطوسي في المقام الى مضمون قوله تعالى :﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ ليبين ان المراد من الحق هم حجج الله تعالى الدالة عليه فيقول :(معناه : إنا نلقي الحق على الباطل فيهلكه ، والمراد به ان حجج الله تعالى الدالة على الحق تبطل شبهات الباطل).( )

على ان الله عز وجل قد أوضح للعباد بلطفه ومن خلال إنزال الكتب السماوية وبعث الرسل ونصب الأوصياء وهم حججه على خلقه ليبينوا للناس ويحيطونهم بمضمون رسالاته وتعاليمه ،وبذلك تمت المعرفة، ولولا هذا اللطف لم يكلف البشر مالا يستطيعون معرفته . فعن عبد الأعلى قال : قلت لأبي عبد الله ﴿ هل جعل في الناس من أداة ينالون بها المعرفة ؟ قال ﴿ : لا ، قلت : فهل كلفوا المعرفة ؟ قال ﴿ : لا ، ان على الله البيان ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وسعها﴿ ( ) و﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴿ ( ) .

وبهذا اللطف الإلهي في تقرير مصير الإنسانية من خلال حتمية وجود الإمام فان الحق يسود والعدل سيتحقق ، وترتفع القيمة العليا للحياة بسيادتهما ،وفي التمييز بين الحق والباطل ، وهذا ما أوضحه الإمام الباقر ﴿ بقوله : (إن الله لم يدع الأرض بغير عالم ، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل وان الله اجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل)( ) ، وهكذا تتبين الدلالات الواضحة على وجوب الإمامة وضرورتها ضرورة حتمية ، أرادها الله سبحانه لكي تسير الإنسانية وفق المنهج الصحيح إلى بلوغ الكمالات ، وتحقيق المصالح العامة والخاصة للعباد وهذا هو اللطف الإلهي الذي تجسّد في المراد من تنصيب الأئمة والأوصياء بعد الأنبياء والذي يترتب عليه كل ما يخص الإنسان وما سيؤول إليه مصيره ،سواء في الدنيا أم في الآخرة ، وما يترتب عليها من نتائج ،فعن الإمام الصادق ﴿ ،عندما سئل عن قوله تعالى :﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ ﴿ ( )،قال ﴿ :(ولاية أمير المؤمنين ﴿)( ) .

إذاً هذا اللطف الإلهي الذي يمنح للعباد وما يترتب عليه من نتائج ، متجسد في ضرورة الولاية وحتمية الإقرار بالإمامة ، بل ان مصير الإنسان في يوم القيامة متوقف على معرفة الإمام الواجب طاعته،فعن الإمام الصادق في قوله تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ ( )، قال :(معرفة أمير المؤمنين والأئمة)( ) ،أضف إلى ذلك فان ضرورة الإمامة تتوقف عليها أمور كثيرة تتعلق بقيادة الحكم الإسلامي وإدارته وما يترتب على ذلك من إحاطة الحاكم الإسلامي علماً بجميع الأحكام الإلهية ،من اجل تثبيت وترسيخ قواعد العدل الإلهي والإنصاف بين الناس بنحو يؤدي بهؤلاء الناس إلى التكامل الإنساني والبشري ،ولا يتحقق هذا إلا من خلال اللطف الإلهي المتجسد برحمته سبحانه من خلال تنصيب القائد والموجه الذي يفصل بينهم فيما اختلفوا فيه ، ففي قول الله عز وجل : وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ( ) يقول الإمام الباقر مخاطباً تلميذه أبا عبيدة :(يا أبا عبيدة ، الناس مختلفون في إصابة القول وكلهم هالك)( ) ،والإمام هنا يشير إلى وجوب وجود شخص يختاره الله عز وجل لحل الاختلاف بين الناس ، وهذا الشخص ليس كسائر الناس ؛ لأنهم يخطئون ويصيبون ،وهذا هو التجلي للرحمة الألهية واللطف الإلهي ،فأي أمر يكون ضرورياً لحل الاختلاف يكون رحمة من الله تعالى ، ومن ثَمّ يكون لطفاً منه عز وجل .

من هنا نستنتج ان الإمامة هي عهد من الله عز وجل إلى الأصفياء من عباده كي يكملوا ما بدأه النبي للمهمات الإلهية والوظائف الربانية في إحداث التغيير الشامل والنقلة النوعية الكبرى للمجتمعات ، فكان(يباشر دعوة انقلابية ،ويمارس عملية تغيير شامل للمجتمع وأعرافه وأنظمته ومفاهيمه ، ولم يكن الطريق قصيراً أمام عملية التغيير هذه ، بل كان طريقاً طويلاً ممتداً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والإسلام).( )

لذا -والحال هذه- كان وجوباً على الله عز وجل أن يجعل شخصاً يتولى قيادة الأمة ؛ كي يتم من خلاله الحفاظ على المعايير والأنظمة الإلهية ،ودوام السنن الكونية ، والاستمرار في طريق الاستقامة التي أرادها الله

سبحانه . وهذا هو المستفاد من قول الإمام الصادق في احتجاجه على احد الزنادقة في إثبات ضرورة وجود خليفة يقوم مقام رسول الله ، فقال :(نحن نزعم ان الأرض لا تخلو من حجة ، ولا تكون الحجة في الأرض إلا من عقب الأنبياء ، وما بعث نبياً قط من غير نسل الأنبياء).( ) وهذا متأت من ان نظام الحياة لا يستقيم ما لم يكن هناك إمام وقائد رباني ينتهج الخلق منهجه وتعاليمه ،ويرجعون إليه في حيرتهم وشكهم ، ولهذا نجد الإمام يوضح النتيجة التي سيؤول اليها امر العباد في اتباعهم الامام وطاعته ، فيقول : (لو أنهم أقروا به وأطاعوه واخذوا عنه ظهر العدل وذهب الاختلاف والتشاجر ،واستوى الأمر ، وأبان الدين ،وغلب على الشك اليقين)

ثانياً : طرق إثباتها :

تبين مما سبق ان أهمية الإمامة تكمن في أنها الوظيفة الالهية التي جعلها الله عز وجل الرافد الرئيس في دوام الاتصال بين الله عز وجل والإنسان على الأرض ؛ من اجل بلوغ الكمالات والمقامات العليا، ولا يتحقق ذلك إلا من خلال وجود الإمام الذي يكفل النظام الواسع لجميع ما يحتاجه الإنسان في دنياه ومعاده وهذا المعنى يجسده الإمام علي بقوله :(فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك ...والأمانة نظاماً للأمة ، والطاعة تعظيماً للإمامة)( ) ويقول ايضاً:(وما كان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره ابداً) ( )، فإذا كانت الإمامة بهذا القدر من الأهمية ، فهل يُترك أمر تعيينها إلى الأمة ،وتعيين القائم بها بتعيينهم ، أم أنها ركن الدين ونظام الإسلام ، بحيث لا يجوز للنبي إغفال أمرها وتركه إلى الأمة ؟بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، وهذا التعيين يكون من الله عز وجل؛ باعتبار ان النبي مَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ( ). يقول الايجي :قال الإمام الرازي : اتفقت الأمة على انه لا مقتضى لثبوتها إلا احد أمور ثلاثة ، النص والاختيار والدعوة .( ) وذهبت الأشاعرة والمعتزلة والخوارج والصالحية من الزيدية على ان الاختيار طريق لاثبات الامامة ( ) أما مبدأ الدعوة ( ) فقد نادى به سائر الزيدية ( )

وقالوا : ان (كل فاطمي عالم زاهد خرج بالسيف وادعى الإمامة فهو إمام).( ) أما الامامية فقد اجمعوا على ان الطريق لتعيين الإمام أمران :

1-النص من الله تعالى أو نبيه أو إمام تثبت إمامته بالنص عليه ( ) من حيث أن الإمامة لطف ، ولكي تكون لطفاً فلا بد من النص عليه باسمه ونسبه ( ) .

2- ظهور المعجزات على يده ؛لأن شرط الإمامة العصمة وهي من الأمور الخفية الباطنة التي لا يعلمها إلا الله تعالى .( )

والحق إن مبدأ النص على الإمامة مبدأ راسخ وواضح بيّنه الأئمة الطاهرون عن ماهيتها وحقيقتها من خلال الكشف عن ماهيته الإمام وما يتمتع به من الصفات والخصال التي تؤهله لتسنم هذا المنصب الإلهي الخطير ، فعن أبي عبد الله انه قال :(عشر خصال من صفات الإمام : العصمة والنصوص و..... وان يكون صاحب الوصية الظاهرة ، ويكون له المعجز والدليل) ( ) .وقد استمد علماء الامامية هذه المبادئ من تأكيدات الأئمة من خلال أحاديثهم المستفيضة من أن الإمامة عهد من الله عز وجل بموجب وصية منه ، فعن الإمام الصادق قال : (الوصية نزلت من السماء على رسول الله كتاباً مختوماً ، ولم ينزل على رسول الله كتاب مختوم إلا الوصية ، فقال جبرائيل : يا محمد هذه وصيتك في أمتك إلى أهل بيتك ، فقال رسول الله: أي أهل بيتي يا جبرائيل ؟ فقال : نجيب الله منهم وذريته).( )

وبما ان هذه الوصية هي المحور الأساس الذي تدور عليه رحى الهداية والتبصرة في دين الله عز وجل ،ووسيلة الكمال الإنساني والروحي بما يلعبه الإمام من دور ريادي في خطوط العقيدة والأحكام والهداية؛ لذا فقد جعلها الله فريضة كبرى تقع على عاتق الأئمة، فعن إسماعيل بن عمار ، قال : سألت الإمام أبا الحسن الأول : (فرض الله على الإمام أن يوصي – قبل أن يخرج من الدنيا - ويعهد ؟ فقال : نعم ، قلت : فريضة من الله ؟ قال : نعم)( ) ؛ ولهذا جاء التأكيد الإلهي في الآيات الكريمة على أمر

الإمامة والاستخلاف الإلهي للائمة ،ففي قوله تعالى :﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ( ) يشير الإمام الصادق بقوله : (هم الأئمة) ( ) . وعلى هذا الأساس بقيت هذه الوصية تتداول بين الأئمة ، فالإمام السابق يدفعها للإمام اللاحق ،وهو أمر هام بينه الإمام أبو عبد الله الصادق عندما تعرّض لبيان قوله تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ ( ) قال :(هي الوصية يدفعها الرجل منا إلى رجل)( ) ، وتعد هذه الوصية العهد الذي استأمنه الله عز وجل عند أوليائه – أئمة أهل البيت – ليتسلمه الواحد تلو الآخر ، حتى ينتهي إلى صاحب الأمر (عج) ، يقول الإمام الصادق :(أترون ان الوصي منا يوصي إلى من يريد ؟ لا والله ، ولكنه عهد من رسول الله رجل فرجل حتى ينتهي الأمر إلى صاحبه). ( )

وتعتبر هذه الوصية إحدى السمات الرئيسية لمعرفة من يتولى أمر الإمامة ، فقد سأل الحارث بن المغيرة النصري الإمام الصادق : بم يُعرف صاحب هذا الأمر ؟ قال :(بالسكينة والوقار والعلم والوصية).( ) ، ومن هنا جاء التأكيد على العهد الإلهي المختص بالنبوة والإمامة ؛ لأنهما صنوان مشتركان في الماهية ، فيجب ان يشتركا في الاحكام ايضاً ، ومن تلك الاحكام الاختيار الإلهي . يقول الشيخ الصدوق :(يجب ان يعتقد ان الله عز وجل الذي جعل النبي نبياً، هو الذي جعل إماماً، وان نصب الإمام وإقامته واختياره إلى الله عز وجل ، وان فضله منه).( ) ، فكما ان اختيار النبي بيد الله عز وجل ، فكذلك اختيار الإمام ، أما الاختيار البشري فهو عاجز تماماً عن أن ينال ذلك ؛ نتيجة لعجز العقول وقصرها عن معرفة المعصوم حتى تُنَصّبه إماماً، وهذا ما أوضحه الإمام الرضا بشأن مقام الإمامة ، فيقول :(إن الإمامة اجل قدراً، وأعظم شأناً ، وأعلا مكاناً ، وامنع جانباً ، وابعد غوراً من ان يبلغها الناس بعقولهم ، أو ينالوها بآرائهم ، أو يقيموا إماما باختيارهم ...هيهات هيهات ، ضلت العقول ، وتاهت الحلوم ، وحارت الألباب ، وخسئت العيون ... إلى ان يقول متساءلاً كي يوصل الناس ويُفهمهم بصعوبة هذا الأمر وبعد منالة إلا ان يقرره الله

عز وجل :(أتظنون أن ذلك يوجد في غير آل الرسول محمد ، كذبتهم والله أنفسهم ومَنَّتهم الأباطيل ، فارتقوا مرتقى صعباً دحضاً، تزل عنه إلى الحضيض أقدامهم ،راموا إقامة الإمامة بعقول حائرة بائرة ناقصة ، وآراءمضلّة ، فلم يزدادوا منه إلا بعدا ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ، ولقد راموا صعباً ، وقالوا إفكا ، وضلوا ضلالاً بعيداً، ووقعوا في الحيرة إذ تركوا الإمام عن بصيرة ، وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ( ) ، رغبوا عن اختيار الله واختيار رسول اللهوأهل بيته إلى اختيارهم والقرآن يناديهم : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ( ) ،وقال عز وجل : وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ( )،وقال : مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَمْ لَكُم كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُون إِنَّ لَكُم فِيهِ لَماَ تَخَيَّرُون أَمْ لَكُم أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يومِ القِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَماَ تَحْكُمُون سَلْهُم أَيُّهُم بِذلِكَ زَعيم أَم لَهُم شُرَكآءُ فليَأتُوا بِشُرَكائِهِم إِن كانُوا صادِقِين ( )، وقال عز وجل : أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ( ) أم : طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ( ) أم : قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (21) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (22) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ( ) أم : قالوا سمعنا وعصينا( )بل هو : فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ( ) فكيف لهم باختيار الإمام ؟ والإمام عالم لا يجهل وراع لا ينكل ....).( )

وبالإضافة إلى هذا البيان الواضح في أن الإمامة لا تثبت إلا بالنص من الله سبحانه أو من رسولهفان النبياهتم بهذا الأمر أيما اهتمام ، مؤكداً عليه في أحاديثه الشريفة . فعن انس قال : قال النبي في قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ ( ) :(إن الله اختارني وأهل بيتي على جميع الخلق ، فانتجبنا ، فجعلني الرسول ،وجعل علي بن أبي طالب الوصي ، ثم قال : مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ يعني ما جعلت للعباد

ان يختاروا ،ولكني اختار من أشاء ، فانا وأهل بيتي صفوة الله وخيرته من خلقه) .( )

وكان بنو كلاب قد أتوا النبيفقالوا له : نبايعك على ان يكون الأمر لنا بعدك ، فقال:(الأمر لله ، ان شاء كان فيكم ، أو في غيركم).( )

وروي أن عامر بن الطفيل ( ) يا محمد مالي إن أسلمت ؟ فقالما للإسلام وعليك ما على الإسلام فقال : ألا تجعلني الوالي من بعدك ؟قال : ليس لك ذلك ولا لقومك ( ) .كما وأنّ الإمام علياً شدد على هذا الأمر من خلال بيانه ان الإمام هو الصراط ،وهو سبيل الله الذي يؤمن لمن سلكه الوصول الى الكمالات السعادات ؛لأن الإمام والقرآن هاديان الى السبيل السوي والصراط الواضح ، يقول فيما ينقله لنا حفيده الإمام الرضا :(واعلموا أيها المؤمنون أن الله عز وجل قال: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ ( ) أتدرون ما سبيل الله ،ومن سبيله ومن صراط الله ،ومن طريقه ؟ أنا صراط الله الذي من لم يسلكه بطاعة الله فيه هوى به الى النار وأنا سبيله الذي نصَّبني للإتباع بعد نبيه))، والإمام بهذا البيان يريد أن يوضح للإنسان أن مسلكه الى الله تعالى بكل ذاته ووجوده ،وكادح إليه فملاقيه ، وهذا لا يتم إلا عن طريق السلوك على الصراط من خلال إتباع السبيل المتجسد بالأئمة الهداة، وهذا ما أشار إليه الإمام الباقر في معرض قوله تعالى: وَإِنَّكَ لَتَهدي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ( ) قال (انك لتأمر بولاية علي وتدعو إليها ، وعلي هو الصراط المستقيم) ( ) ، ويعرّج الإمام الباقر في نفس المضمون ليعطي هذا الملحظ أهميته وأن علياً هو الصراط المستقيم من خلال احتجاجه بقوله تعالى: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ( ) فيقول : انك على ولاية علي وهو الصراط المستقيم).( ) إن الانحراف عن الصراط الذي بيّنه الأئمةهو انحراف عن المبادئ والقيم الإلهية التي رسمها الله عز وجل للإنسان كي يلاقي ربه بنفس مطمئنة تنتظر أن يعطيها ربها أجرها في الثبات والسير وفق المنهج الصحيح ، أما إذا زاغت حركة الإنسان ومالت به الأهواء فسوف يكون

مصيره خسراً يوم القيامة ؛ نتيجة العقبات التي تنتظره ، فعن الإمام ابي عبد الله الصادق قال: جاء ابن الكواء ( )الى أمير المؤمنين فقال يا أمير المؤمنين :وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ( ) فقال :(نحن الأعراف ، نعرف أنصارنا بسيماهم ، ونحن الأعراف الذي لا يعرف الله عز وجل إلا بسبيل معرفتنا ،ونحن الأعراف يُعرفنا الله عز وجل يوم القيامة على الصراط ، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه ، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه ، إن الله لو شاء لعرف العباد نفسه ،ولكن جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله ، والوجه الذي يؤتى منه ،فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا ، فأنهم عن الصراط لناكبون ، فلا سواء من اعتصم الناس به ، ولا سواء حيث ذهب الناس الى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض ، وذهب من ذهب إلينا الى عيون صافية تجري بأمر ربها لانفاذ لها ولا انقطاع).( )

وقد حذر رسول اللهالعباد من تلك العقبات والأهوال يوم القيامة ، مذكرا بنفس الوقت بالتمسك بحبه وحب أهل بيته ؛ لأنهم هم الوقاية والجنة من تلك العقبات .فعن الإمام علي بن الحسين عن ابيه قال : قال رسول الله:(حبي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن ،أهوالهن عظيمة :عند الوفاة ، وفي القبر ، وعند النشور ، وعند الكتاب ، وعند الحساب ، وعند الميزان ، وعند الصراط).( ) وهكذا يظهر التجلي الإلهي بمن اختارهم بعد رسوله الأعظم وبما أعطوا من ميزات جعلتهم قادة الإنسانية جمعاء ،فهم المثل الاعلى فيما أراده الله عز وجل .عن الإمام الحسين بن علي قال : قال رسول اللهلعلي :(يا علي أنت حجة الله ، وأنت باب الله ،وأنت الطريق الى الله ، وأنت النبأ العظيم ، وأنت الصراط المستقيم ، وانت المثل الاعلى ....)( ).

من هنا كان الاختيار الإلهي – لا اختيار العباد- أمر لابد منه في تجسيد وترسيخ المسار الصحيح في الأرض وقيادة المجتمعات ، وفق الأنظمة والقوانين الإلهية ؛ لأن الإنسان مهما بلغ من الارتقاء والمقامات يبقى محتاجاً الى الإرشاد الإلهي والتوجيه الرباني ، ويظهر ذلك جلياً فيما استدل به حجة الله على أرضه الإمام المهدي (عجل الله فرجه) فيما يرويه

سعد بن عبد الله ، عندما قال له :اخبرني يا مولاي عن العلة التي تمنع القوم من اختيار إمام لأنفسهم ، قال : مصلح أم مفسد ؟ قلت : مصلح ، قال : هل يجوز أن تقع خيرتهم على الفساد بعد ان لا يعلم احد ما يخطر ببال غيره من صلاح أو فساد ؟ قلت : بلى ، قال : فهي العلة أوردها لك ببرهان ينقاد بذلك عقلك . اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله وانزل عليهم علمه وأيدهم بالوحي والعصمة ، إذ هم أعلام الأمم وأهدى الى الاختيار منهم ،مثل موسى وعيسى ، هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما ، إذ همَّا بالاختيار ان تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان انه مؤمن ؟ قلت : لا ، قال : فهذا موسى كليم الله مع وفور عقله وكمال علمه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه سبعين رجلاً ممن لم يشك في ايمانهم واخلاصهم فوقعت خيرته على المنافقين ، قال الله عزوجل : واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ( )، وقوله : لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ ( ) ، فلما وجدنا اختيار من اصطفاه تعالى لنبوته واقعاً على الافسد دون الأصلح وهو يظن انه الأصلح دون الافسد ،علمنا ان لاختيار إلا لمن يعلم ما تخفي الصدور وتكن الضمائر وتتصرف عليه السرائر ،وان لاخطر لاختيار المهاجرين والأنصار بعد وقوع خيرة الانبياء على ذوي الفساد لما أرادوا أهل الصلاح).( )

وبما إن الإطار العام لإثبات الإمامة – عند الامامية – هو النص فقد كان محور الخلاف مع الفرق الأخرى ؛ لأنه الطريق الوحيد الذي يوصل الى الإرادة الإلهية والجعل الإلهي في تولي أمور الرعية بعد رحيل الرسول الأعظم؛ ولهذا فقد انقسم النص على قسمين :

1- النص الخفي .

2- النص الجلي .وسنتوافر على بيان كل منهما .

لقد كان النص والوصية السّمتان الرئيسيتان في إتصاف الامامية والتزامهم بهذا المبدأ والاعتقاد بان الأئمة المعصومين هم خلفاء رسول اللهبوصية

منه وبإرادة من الله ( ) وكان هذا الاعتقاد مصرّح به من بعض الفرق العقائدية ( ) .

وفي هذا الإطار جاءت أحاديث الأئمة واحتجاجاتهم بالنص من الله عز وجل في إثبات إمامتهم ، فعن ابي الجارود قال : سالت أبا جعفر الباقر بمَ يعرف الإمام ؟ قال : بخصال أولها النص من الله –تبارك وتعالى – عليه ، ونصبه علماً للناس حتى يكون عليهم حجة ( ) .

وعن الحسن بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون يوما وعنده الإمام علي بن موسى الرضا وقد اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من الفرق المختلفة ، فسأله بعضهم ، فقال : يا ابن رسول الله، بأي شيء تصح الإمامة لمدعيها؟ قال: بالنص والدليل .( )

وقول الإمام هذا في غاية الدقة والكمال في إشارته الى وجود النص على الإمام وكذلك وجود الدليل ، إذ لا يكون إماماً إلا ومعه دليل كالنبوة (فالدليل لابد من ارتباطه بالمدلول كارتباط المعلول بالعلة ، حتى يكون إثباتاً لما هو في مقام الثبوت) .( ) وبما إن الإمام أمين الله في أرضه ، وحجته على عباده ، والأمانة تستدعي أن يودع المستأمن في الأمين كل خصائص الكمال والصفات النفسية العالية والعلوم الإلهية ، وما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم ، وبهذا يحتاج الأمين من المستأمن لإثبات كونه أهلاً للأمانة ، فجاء النص عليه إثباتاً لإمامته وقيادته العليا، وحتى يكون حجة على الخلق ، جاء الدليل معه من العلم واستجابة الدعوة ، فلا يكون الإمام جاهلاً، أو فيه عجز .

وهكذا كان النص على إمامة الأئمة الطاهرين هو الفيصل والمفترق بين الامامية وغيرهم ، وقد قسم الشريف المرتضى النصَّ الى قسمين : نص بالفعل والقول ، ونص بالقول فقط ، ثم قسم الثاني الى قسمين نص جلي ،ونص خفي ويفصل القول فيهما فيقول : (فأما النص بالقول والفعل ، فهو ما دلت عليه أفعاله وأقواله المبينة لأمير المؤمنين من جميع الأمة ، الدالة على استحقاقه من التعظيم والإجلال والاختصاص بما لم يكن حاصلاً لغيره) ( ) أما النص بالقول دون الفعل فينقسم على قسمين :

نص جلي : كقوله : (سلموا على علي بإمرة المؤمنين) ( ) وقوله :(هذا خليفتي فيكم من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا)( ) وغيرها

2-خفي : وهو النص الذي لا يعلم ثبوته والمراد منه إلا استدلالاً كقوله :(أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي) ( ) . ويزيد الشيخ الطوسي تعريف النوعين المذكورين من النص وضوحاً أكثر فيقول :(أما النص الجلي : فقد تفرد بنقله الشيعة الامامية خاصة، وإن كان في أصحاب الحديث من رواه على وجه نقل اخبار آحاد

أما النص الخفي : فيرى الشيخ الطوسي أن جميع الأمة تلقته بالقبول ، وان اختلفوا في تأويله والمراد منه، ولم يقدم احد على إنكاره ممن يُعتد بقبوله) ( ).

وقد حظيت مسالة النص على إمامة علي - عند الامامية – بالقسط الأوفر واحتلت المساحة الواسعة من الفكر العقدي عندهم ؛ لما لها من أهمية كبرى أكدها القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة ، وهذا ما أشار إليه أهل السنة أما تلميحاً أو تصريحاً معتبرين (أن القول بالنص الصريح على إمامة علي هو الخط الفاصل بين التشيع الاثني عشري وبين غيره من المذاهب ... ومن العسير ان يذهب متكلم الى هذا الرأي ولا يعد من خلص المتشيعين).( ) وعلى أي حال ، فقد كان نصيب أئمة أهل البيت في النص على إمامتهم في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة من الكثرة والتزاحم مايحتاج بيانها الى ما لا يحصى من المؤلفات .( ) وبالإمعان الدقيق في هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نجد ان كل واحدة منها تعبر عن حالة معينة اختص بها أهل البيت كرامة ورفعة وسؤودا.

ورعاية لمنهج البحث في عدم الإطالة نذكر بعضاً من هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة:

أولاً : النص على إمامتهم في القرآن الكريم .

1- قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ( ) وهذه الآية

الكريمة تعبر تعبيراً واضحاً عن مبدأ الاصطفاء لأهل البيت كما هو مستفاد من أقوال الأئمة، فعن ابي عبد الله حينما سأله سائل أن يعطيه حجة من كتاب الله ، يستدل بها على إن آل محمد هم أهل بيته خاصة دون غيرهم ، فقال الإمام :(نعم ، قال الله عز وجل : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ثم بين من أولئك الذين اصطفاهم ،فقال :ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، ولا تكون ذرية القوم إلا من نسلهم) ( ) أي إن هؤلاء الذين اصطفاهم الله عز وجل هم متشابهون في كل تفاصيلهم ،ولا يفترق بعضهم عن البعض الأخر في صفات الفضيلة والكمال في كل شيء فحقَّ بهم الفعل الإلهي وهو (الاصطفاء) على العالمين وهو افاظة الخير المحض من خلالهم على العالمين ، وهو سميع عليم بهم ومحيط بقلوبهم وضمائرهم .

ولذا جاء تفضيل العترة الطاهرة لأنها امتداد لتلك الذرية الصالحة المتشابهة التي يرجع بعضها للبعض الآخر ، وهذا ما أوضحه الإمام الرضا عندما سأله المأمون العباسي : هل فضل الله العترة على سائر الناس ؟ فقال الإمام أبو الحسن محتجاً بالقران الكريم : (إنَ الله أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه ، فقال المأمون : أين ذلك في كتاب الله ، فقال له الرضا ، في قوله : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ( ) ولكي يواصل الإمام الرضا بيانه في أن الإمامة تكمن في هذه الذرية الصالحة ويكشف عن أحقية ذرية محمد فيها ، فقد أبان عن أن النبوة والحكمة كانت في آل إبراهيم وان الله منحهم ذلك الملك العظيم ، فقال :(وقال عزوجل في موضع أخر : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ( ) ، ثم رد المخاطبة في اثر هذه الى سائر المؤمنين فقال : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ( ) يعني الذي قرنهم بالكتاب والحكمة وحُسدوا عليها ، فقوله عز وجل : أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ

وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً يعني الطاعة للمصطفين الطاهرين ، فالملك هاهنا هو الطاعة لهم).( )

ويكشف الإمام الباقر بكل وضوح للعباد كافة أن بقية الذرية الصالحة التي ذكرها الله تبارك وتعالى في هذه الآية هم الأئمة الطاهرين، إذ يحتج بهذه الآية المباركة -آنفة الذكر-فيقول : (نحن منهم ونحن بقية تلك العترة)( ) وقضية أخرى أن هذه الحكمة وميراث العلم الذي أودعه الله عز وجل في هذه الذرية الصالحة الطيبة من آدم الى محمدلم تنقطع وإنما عَهِدَها الله سبحانه في الذرية الطاهرة من آل محمد، فقد أشار الإمام الباقر الى هذا الأمر بقوله :(لما قضى محمد نبوته واستُكمِلت أيامه اوحى الله تبارك وتعالى اليه : يا محمد قد قضيت نبوتك واستكملت أيامك ،فاجعل العلم الذي عندك من الإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار النبوة في العقب من ذريتك ، فاني لم اقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة في العقب من ذريتك، كما لم اقطعها من بيوتات الانبياء الذين كانوا بينك وبين أبيك آدم ، وذلك قول الله : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .( )

على إن هذه الآية حجة دامغة وبرهان لا يقبل المراس على أن أهل البيت الأئمة الطاهرين هم ذرية محمد، وهم موضع الرسالة ومهبط الوحي ، ومختلف الملائكة ؛ ولهذا كثر احتجاج الأئمة بها بما لامجال هنا لذكره . وكان الإمام الحسين قد احتج بها يوم عاشوراء في طف كربلاء لينبئ الذين ناوؤه انه الإمام المفترض الطاعة حين ناداه محمد بن الاشعث بن قيس الكندي ،فقال :(يا حسين بن فاطمة ،أية حرمة لك من رسول الله ليست لغيرك؟ فتلا الحسين هذه الآية : إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ثم قال : والله ان محمدا لمن آل ابراهيم ، وان العترة الهادية لمن آل محمد) ، ثم سأل الحسين عن الرجل ،فقيل له :فلان ،فدعا عليه الحسين فأخذه الله في الدنيا وأماته شر ميتة .( ) وبعد هذا البيان

الواضح للآية الكريمة فلا يبقى أدنى شك بان أهل البيت هم بقية الذرية الصالحة الطاهرة من لدن آدم مروراً بإبراهيم وهم الكلمات التامات اللاتي ابتلي بهن إبراهيم ، فعن صفوان الجمال ، قال : كنا بمكة ، فجرى الحديث في قوله تعالى : وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ( ) فقال الامام الصادق :(أتمهن بمحمد وعلي والأئمة من ولد علي، في قول الله :(ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم) ( ) .وقد أشار النبي الى التشابه والصلة والارتباط في هذه الذرية الطاهرة والتي تحمل نفس الميزات ،بل أنّ الخاتم محمدهو افضلهم جميعاً، فقال، فيما يرويه عنه حفيده الإمام الصادق :(إني من إبراهيم وإبراهيم مني ،دينه ديني ، وسنته سنتي ،وفضله فضلي ،واني أفضل منه ، وفضلي له فضل تصديق قول ربي :ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.( )

وقد إحتج الإمام الصادق اثناء مخاطبته تلامذته بالقرابة القريبة من رسول الله وأنهم أبناؤه من ابنته فاطمة ، قائلاً:(والله لقد نسب الله عيسى بن مريم في القرآن الى إبراهيم من قبل النساء ، ثم قال :(ومن ذريته داود وسليمان) الى قوله : (ويحيى وعيسى) ( ) ( ) .

2-قوله تعالى : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ( ).

وسبب نزول الآية معروف في قضية نصارى نجران وطلب النبي مباهلتهم ( ).

إن ما يشير الى وجوب الإمامة والنص عليها لأمير المؤمنين في هذه الآية هو إخراجه الأبناء : الحسن والحسين ،والنساء فاطمة والنفس :علي بن ابي طالب ،ولو كان غيرهم اقرب عند الله تعالى وأصلح لكان الأمر بالاستعانة بهم في الدعاء اقرب .( )، وإشارة الآية في(أنفسنا) دليل على خلافة أمير المؤمنين بلا فصل ؛ (لأنه مع وجود النفس المُنّزلة منزلة نفس النبي بنص الكتاب ،والتي هي امتداد لوجود الشريف ، لا يعقل أن

يقوم مقامه شخص آخر).( ) وقد احتج الإمام أمير المؤمنين بهذه الآية وماله من المناقب التي حاز عليها ، فقال :(لقد علم المستحفظون من أصحاب النبي انه ليس منهم رجل له منقبة إلا وقد شركته فيها وفضلته ، ولي سبعون منقبة لم يشركني فيها احد منهم ، ثم تلا هذه الآية ، فقال : فكان نفسي نفس رسول الله.....)( ) ،وهذا دالٌ على سمو الرفعة وعلو المنزلة وسناء الأصل وشرف لا يدانيه شرف ولا يرقى إليه عشير .وقد استفهم الإمام الباقر من ابي الجارود في هذه القضية الهامة فقال:(يا أبا الجارود ، ما يقولون لك في الحسن والحسين H؟قلت : ينكرون علينا أنهما إبنا رسول الله، قال : فأي شيء احتججتم عليهم ؟ ، قلت : احتججنا عليهم بقول الله عز وجل في عيسى بن مريم : وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ ( ) فجعل عيسى بن مريم من ذرية نوح ، قال :فأي شيء قالوا لكم ؟ قلت : قالوا : قد يكون ولد الابنة من الولد ولا يكون من الصلب ، قال : فأي شيء احتججتم عليهم ؟ قلت : احتججنا عليهم بقول الله تعالى لرسوله: فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ .( ) قال :فأي شيء قالوا ؟ ،قلت : قالوا :قد يكون في كلام العرب أبناء رجل وآخر يقول :أبناؤنا .قال: فقال أبو جعفر : يا أبا الجارود لاعطينكها من كتاب الله جل وتعالى أنها من صلب رسول الله لا يردها إلا كافر .قلت : واين ذلك جعلت فداك ؟ قال : من حيث قال الله تعالى : حرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ....الآية ،الى أن انتهى الى قوله تعالى : وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ ( ) ،فسلهمم يا أبا الجارود ،هل كان يحل لرسول الله نكاح حليلتيهما ؟ فان قالوا : نعم ، كذبوا وفجروا ، وان قالوا : لا ، فهما ابناه لصلبه).( ) ،والإمام يضيف الى الآية – موضوع البحث – برهان قرآني آخر لتوسيع دائرة اليقين ، والجزم والإثبات بان الحسن والحسين(ع)ابنا رسول الله، مع إن القرآن قد اثبت نسب عيسى الى إبراهيم ومن ذريته ، (ولما صح ان ابن البنت ذرية ،

ودعا إبراهيم لذريته بالإمامة وجب على محمد الاقتداء في وضع الإمامة في المعصومين من ذريته حذو النعل بالنعل بعد ما أوحى الله عزوجل إليه وحكم عليه بقوله : أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ( ) ولو خالف ذلك لكان داخلاً في قوله عز وجل : ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ( ) ، جل نبي الله عن ذلك).( ) ،كما إن الإمام موسى بن جعفر قد احتج بهذه الآية عندما ألح عليه أبو جعفر المنصور في ذلك ليؤكد إن معنى (انفسنا) هو الإمام علي بن ابي طالب فقال : (ولم يَدَّعِ أحد انه ادخل النبي تحت الكساء عند المباهلة للنصارى إلا علي بن ابي طالب وفاطمة والحسن والحسين فكان تأويل قوله تعالى (أبناءنا)الحسن والحسين و(نساءنا)فاطمة و(أنفسنا) علي بن ابي طالب) .( )

على ان المعاندين والمبغضين للعترة الطاهرة ،أرادوا بكل ما أوتوا من قوة ان يحرفوا مسار الآية الكريمة ودلالتها على أهل البيت، لم يفلحوا ، فنرى الإمام الرضا قد خاض غمار ذلك ونزل الى ساحة المناظرة والاحتجاج مع جمع كبير من العلماء والجهابذة الذين جمعهم المأمون العباسي في مجلسه حين قال :(فأمر نبيه بالمباهلة بهم في آية الابتهال ... فبرّز النبي علياً والحسن والحسين وفاطمة صلوات الله عليهم ، وقرن أنفسهم بنفسه ، فهل تدرون ما معنى قوله : (وأنفسنا وأنفسكم)؟ قالت العلماء :عنى به نفسه ، فقال أبو الحسن : لقد غلطتم ، إنما عنى بها علي بن ابي طالب ، ومما يدل على ذلك قول النبي :لينتهين بنو وليعة .( ) أو لابعثن إليهم رجلاً كنفسي ، يعني علي بن ابي طالب ،وعنى بالأبناء الحسن والحسينH، وعنى بالنساء فاطمةا، فهذه خصوصية لا يتقدمهم فيها احد ، وفضل لا يلحقهم فيه بشر ، وشرف لا يسبقهم إليه خلق ، إذ جعل نفس علي كنفسه) .( )

على إن جملة من أعلام مفسري إخواننا السنة أكدوا اصطحاب النبي لعلي وفاطمة والحسن والحسين في مباهلته مع نصارى نجران ( )يقول الفخر الرازي في معرض تفسير الآية المباركة :(وليس المراد بقوله :(وأنفسنا)

نفس محمد لان الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره ،واجمعوا على إن ذلك الغير كان علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، فدلت الآية على ان نفس علي هي نفس محمد).( ) والجدير بالذكر أن معاوية استفهم من سعد بن ابي وقاص عن عدم سبه لأبي تراب – علي بن ابي طالب – فقال سعد : لثلاث قالهن رسول الله لعلي : أما ترضى أن تكون من بمنزلة هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي ،ويوم خيبر :لأعطين الراية غداً.....ولما نزلت هذه الآية :قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ....الآية فدعا رسول الله عليا وفاطمة والحسن والحسين ،وقال اللهم هؤلاء أهلي).( )

من هنا يتضح أن آية المباهلة من الآيات التي دلت دلالة واضحة على إمامة علي إذ انه نفس رسول الله بنص الآية ،ومن كان نفس النبي فلا يتقدم عليه احد بعده ، أضف الى ذلك أن النبي لو كان يجد صفوة مطهرة خالصة غير هؤلاء الأربعة لباهل بهم ؛ اذ أن هؤلاء اكبر سلاح واجه به النبي أعداءه وتحداهم في معركة حسمت لصالحه سواء كانت معركة فكرية أو سياسية أو عسكرية ، وهؤلاء هم رمز الإسلام في جميع النواحي ، فالإمام علي يعتبر جبهة عسكرية بكاملها ؛ ولهذا أقدم على إخراجهم ليوحي للأمة أن هؤلاء هم الضمانة الحقيقية لمستقبلها عند مواجهة الأخطار .وأمر أخر : أن هذه الواقعة هي اختبار كبير للائمة الإسلامية لفهم منزلة هؤلاء الأربعة على أنهم مُختارون ومصطفون من الله سبحانه ؛ لأن النبي إنما أخرجهم بأمر من الله سبحانه ؛ لِيُبَرّز جل شانه دورهم ومكانتهم وعلو شانهم أمام مرأى ومسمع الجميع أبناء الأمة الإسلامية أو أعدائهم .

3-قوله تعالى : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ( ) وهذه الآية نزلت في بدء الدعوة الإسلامية ، إذ جمع النبي بني عبد المطلب وقال :(قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ،وقد أمرني ربي ان ادعوكم إليه ، فأيكم يؤازرني على أمري هذا؟.فقال علي - وكان اصغر القوم سناً- : أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه ، فاخذ النبي برقبة علي وقال : هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا).( )

وهذه الحادثة التي نزلت الآية بسببها من أوثق الدلالات واصدق البراهين وأوضح العلامات على خلافة علي بعد النبي ( ) ، إذ فرض طاعته على الأكابر من عشيرته وقومه وبني عمومته ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على انه الخليفة بعد رسول الله بلا منازع ، لاسيما صريح قول رسول الله :(وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا) ،فإذا كان علية القوم من قريش قد أمرهم النبي بالسمع والطاعة ،فبالأحرى أن يكون خليفته على غيرهم،ويُعَضّد هذا قول رسول الله في علي :(تختصم الناس ولا يحاجك احد من قريش ، أنت أولهم ايماناً بالله ، واقومهم بامر الله ، واقسمهم بالسوية ، واعدلهم في الرعية ، وابصرهم بالقضية ، أعظمهم عند الله مزيّة).( ) ، وقد أكد الإمام أمير المؤمنين هذه الحادثة باعتبارها المنزلة التي منحها الله سبحانه له من خلال الأمر النازل على رسول الله بآية الإنذار ، إذ انه (ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) ( ) فقال :لما نزلت الآية ،دعا رسول الله ..... الى إن قال :فقال :أيكم يكون أخي ووصيي ووارثي ووزيري وخليفتي منكم بعدي؟ فقلت: أنا يا رسول الله ، فقال: يا بني عبد المطلب هذا أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي).( )

ونجد الإمام الرضا يؤكد هذه المنزلة العظمى لجده الإمام علي عندما احتج على علماء العراق وخراسان في مجلس المأمون بـ(مرو)عندما سئُل عن الاصطفاء في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ( ) هل فسره الله في كتابه الكريم ؟ فقال : فسّر الاصطفاء في الظاهر سوى الباطن في اثني عشر موضعاً وموطناً، فأول ذلك قوله عز وجل : وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ورهطك المخلصين وهكذا في قراءة ابي بن كعب ،وهي ثابتة في مصحف عبد الله بن مسعود ،وهذه منزلة رفيعة وفضل عظيم ، وشرف عالٍ حين عنى الله عز وجل بذلك الآل ، فذكره رسول الله فهذه واحدة).( )

4-قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ( ).

وهذه الآية وغيرها من الآيات ،أقرت أهم مسألة في الإسلام وهي قيادة المجتمع ،وتعيين القادة والرؤساء الحقيقيين للعباد ، لاسيما وان هذه القيادة نابعة من طاعة الله عز وجل ورسولهﷺومُلازمة لهما ،فمن جهة الباري جل وعلا ،فهي ولايته المقدسة التي تكون حسب أوامره ومشيئته وما يرتضيه ،ومن جهة رسوله باعتباره النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ؛لذا فلا يأتي من يتولى حكم الله وحكم رسوله إلا معصوماً، ونلاحظ هنا ان الذي يتولى حكم الله وحكم رسوله تكون طاعته مترتبة زماناً على طاعة رسول اللهﷺ، أي أنها في طول طاعتهﷺلا في عرضها، وبعبارة أخرى :ان طاعة أولي الأمر غير متفرعة عن طاعة الرسولﷺ وإنما هي فرع من طاعة الله عز وجل ، لذا فقد قرن (طاعة الأئمة بطاعته ،ودل على ان المعصية لهم كمعصيته على حدٍ سواء في حكمه وقضيته) ( ) . ومن هنا (يجب ان يُعتقد انه يلزمنا من طاعة الإمام مايُلزمنا من طاعة النبيﷺ، وان كل فضل آتاه عز وجل نبيه فقد آتاه الإمام إلا النبوة).( ) ، ومن هنا جاء استدلال الامامية على إمامة الأئمة الأطهار ﷺووجوب معرفتهم وطاعتهم من خلال أمور عدة صرّح بها القرآن الكريم ،لاسيما هذه الآية – موضوع البحث- ، يقول الشيخ المفيد :(فأما القرآن فقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ فاوجب معرفة الأئمة من حيث اوجب طاعتهم ، كما اوجب معرفة نفسه ومعرفة نبيهﷺ بما ألزم من طاعتهما على ما ذكرناه).( ) كما صرح العلامة الحلي بان الله سبحانه (قد جعل طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر متساويتين لاقتضاء العطف والمساواة في العامل،وكما ان طاعة الرسول لا يقوم غيرها مقامها،كذلك طاعة أولي الأمر).( )

وقد استخلص علماء الامامية هذه الدلالات من خلال ما صرَّح به الرسول الأعظم ﷺوالأئمة المعصومين من أهل بيته ﷺ.ففي الحديث الذي يرويه أبو ذر الغفاري قال : قال رسول اللهﷺ:(من أطاعني فقد أطاع الله ومن

عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع علياً فقد أطاعني ، ومن عصى علياً فقد عصاني)( ) .أما الأئمة الأطهار فقد كان نصيبهم الأوفر في الاحتجاج بهذه الآية على أنهم أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ، وأنها امتداد لزعامة الرسول وحكومته ، وهي واحدة ممتدة في كل زمان ، فقد فسر الإمام الباقر هذه الآية بأن المراد هم الأئمة ، وأن إمامتهم باقية الى يوم القيامة ، فعن ابي بصير ، عن ابي جعفر في قول الله عز وجل : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ،قال : (الأئمة من ولد فاطمةا، الى ان تقوم الساعة)( ) ، فكان مراد الإمام أن هذه الطاعة متفرعة من طاعة الله تعالى ، فكما أن الرسول مطاع بأمر الله عز وجل كذلك الأئمة،وهم الامتداد الطبيعي للنبوة ، فَتُنجَز حكومته وقراراته بعد رحلته ، وقد أكد هذا المعنى الإمام الصادق عندما سأله الحسين بن ابي العلاء قائلاً: (يا أبا عبد الله ،قولنا في الأوصياء أن طاعتهم مفترضة ، قال : نعم ، هم الذين قال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ .( )

على ان الأئمة تكون أوامرهم وطاعتهم واحدة ،وليس هناك اختلاف بينهم ، فقد سأل أبو بصير الإمامَ الصادق عن الأئمة : (هل يجرون في الأمر والطاعة مجرى واحد ؟ فقال : نعم)( ) ، وهذا الحديث فيه اشاره واضحة الى ما تقدم من انَّ هؤلاء المعصومون المفترضو الطاعة كلهم واحد إلا إن أزمانهم اختلفت ؛لكي لا تخلوا الأرض من حجة ،ولكي لا تتعدد مصادر القرار والزعامة والولاية في زمن واحد .والأئمة، يعطون المساحة الواسعة في احتجاجهم بهذا الأمر ، وميدانهم وقصب سبقهم هو القران الكريم ،ليثبتوا هذا الجعل الإلهي ، فعن بريد العجلي قال : سالت أبا جعفر عن قول الله عز وجل : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فكان جوابه : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ( )، يقولون لأئمة الضلالة والدعاة الى النار :هؤلاء أهدى من آل محمد سبيلا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمْ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنْ اللَّهُ

فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ الْمُلْكِ – يعني الإمامة والخلافة - فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ( )،نحن الناس الذين عنى الله ، والنقير النقطة في وسط النواة) ( ) ،وهذا استفهام استنكاري إذ لا يمكنهم أن يأخذوا نصيباً من الإمامة والخلافة . وتكفي الإشارة هنا الى أن الإمام هو مرتكز الكون والوجود ، وهو قوله تعالى : وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ( ) ، وهذا ما أوضحه الإمام الباقر عندما نقل هذا المعنى عن جده رسول الله،فقد سئل عن الإمام المبين ، هل هو التوراة ؟ قال :لا ، فهل هو الإنجيل ؟ قال :لا - فهل هو القرآن ، قال :لا ، فاقبل أمير المؤمنين علي فقال رسول الله :هو هذا ، إنه الإمام الذي أحصى الله تبارك وتعالى فيه علم كل شيء).( )

وهكذا تكون الولاية ولاية تصرف وتدبير وحكم ، انتقلت منه تعالى الى رسول الله ثم الى الذين امتلكوا زمام المواصفات التي لا توجد عند غيرهم ، فكان من مقتضيات ولايتهم ان يقضوا ويحكموا في المنازعات بين الناس ، ولا يجوز للناس أن يتنازعوا معهم ؛ لأنهم أولو الأمر الذين فرض الله طاعتهم على العباد ، وهو ما ورد في قوله تعالى : فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ( )،وهذا يعني إن (ليس لأولي الأمر –كائنين من كانوا- ان يضعوا حكماً جديداً، ولا ان ينسخوا حكماً ثابتاً في الكتاب والسنة ، وإلا لم يكن لوجوب إرجاع موارد التنازع الى الكتاب والسنة والرد على الله والرسول معنى).( ) من هنا يتبين انه لا يقضي بين الناس إلا من استوفى المؤهلات العليا في ذلك ، فكما إن الله تعالى لا يأمر ولا ينهى إلا بما كان صواباً دائماً، فكذلك رسوله وأولي الأمر من بعده ، وهذا ما صرح به الإمام الباقر عندما سأله بريد العجلي عن الآية موضع البحث ،فقال :(إيانا عنى خاصة ، أمر جميع المؤمنين الى يوم القيامة بطاعتنا ،فان خفتم تنازعاً في أمرٍ فردوه الى الله والى الرسول والى أولي الأمر منكم ، كذا نزلت ، وكيف يأمرهم الله عزوجل بطاعة ولاة الأمر ويرخص في منازعتهم ؟ إنما قيل ذلك للمأمورين الذين قيل لهم : أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ( ) .

5-قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ( ) . وسبب نزول هذه الآية -كما ذكره جمع من أئمة التفسير - في أمير المؤمنين علي (ع) وقضية تصدقه بالخاتم وانه لا خلاف بين المسلمين في ذلك. والآية الشريفة –موضوع البحث – تعالج موضوعاً في غاية الأهمية والتعقيد في منطلقه العقائدي والحياتي في إطار الأمة ومستقبلها ،إذ يبحث هيكليتها القيادية من جانب ،وتجسيد الطاعة الحقة لله ولرسوله ولنمط من الناس لهم صفات ومؤهلات لا توجد عند غيرهم ،تؤهلهم لان تناط بهم قيادة الأمة .وقد سجل الوحي المبين هذه الحادثة- التصدق بالخاتم – وربطها بموضوع الولاية العظمى والخلافة الكبرى ، وهو إيحاء للناس أنها توثيق من الله عز وجل لأولئك الذين يجسدون الطاعة الحقة لله سبحانه تجسيداً رائعاً، إذ أنها محور حركتهم وتفكيرهم فكان أمير المؤمنين ﴿ رائدها وصاحب الامتياز فيها ، ولتبقى هذه الحادثة بمدلولاتها وإشارتها محفورة في صفحات التاريخ الخالدة . والإمام أمير المؤمنين يشير الى هذه المنقبة عندما احتج لنفسه المقدسة بها وعدّها من بين سبعين منقبة بقوله : (لقد علم المستحفظون من أصحاب النبي﴿ انه ليس فيهم رجل له منقبة إلا وقد شركته فيها وفضلته ،وذكر من بينها هذه الآية) ( )

وقد أكد الأئمة الأطهار ﴿هذه الحادثة ليشيروا من خلالها الى المعاني السامية والفضائل الكريمة التي نالها أمير المؤمنين ﴿ تثبيتاً وشهادة من الله تعالى على ولايته .يقول الإمام الصادق﴿ :(وكان أمير المؤمنين ﴿ في صلاة الظهر ،وقد صلى ركعتين وهو راكع ، فجاء سائل ، فقال : السلام عليك ياولي الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم ، تصدق على مسكين ، فطرح الحلة إليه وأومأ بيده إليه أن إحملها ، فانزل الله عز وجل فيه هذه الآية)

دليل امامة علي بن ابي طالب (ع) بدلالة الآية القرآنية السابقة

1-لفظة (إنما) ، وهي تفيد الحصر والقصر بمعنى أنها مخصصة لما أثبتت بعدها، نافية لما لم يثبت ، وقد ذهب المفسرون الى أنها تفيد الحصر والقصر .( )

2-(وليكم) ، قال الراغب الأصفهاني :(الولاية بالفتح):تولي الأمر ، وقيل : الولاية (بالكسر) والولاية (بالفتح) نحو الدِلالة والدَّلالة ،وحقيقته تولي الأمر)( ) .

3-دلالة لفظ (وليكم) : إذ أن المعنى المراد فيها هو(من كان متحققاً بتدبيركم والقيام بأموركم وتجب طاعته عليكم) ( )، والذي يستحق وصف الأولى،وهو مشهور عند أهل اللغة،إذ يقولون :فلان ولي المرأة ، أي إذا كان أولى بالعقد عليها ، وفلان ولي الدم إذا كان له حق المطالبة بالقود أو الدية أو العفو ، ويقولون ولي عهد المسلمين للمرشح للخلافة .( )

4-وقد أفاد الاستدلال بلفظ(الولي) معنى الإمامة ، إذ اعتبرها الله تعالى لخاصة المؤمنين الذين يتصفون بصفات (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)، وهذه المواصفات الخاصة تحددت بشخص أمير المؤمنين ، وقد دلّت الروايات على اته هو الذي تنطبق عليه هذه المواصفات ( ) ،وأمر آخر ، فان كلمة (وليكم) جاءت بصيغة المفرد ، إذ لو كانت بصيغة الجمع(أولياؤكم) لما كشفت لنا الولاية الحقيقة لله تعالى على أنها سبيل التأصل ثم على سبيل التبع في رسول الله والذين آمنوا ؛لأنها (لو جاءت جمعاً لم يتبين هذا المعنى من الأصالة والتبعية)( ) ، والأمر الثاني إن المذكور في الآية من إيتاء الزكاة في حال الركوع لم يثبت إلا لأمير المؤمنين ولم يكن إلا منه .( )

5-الإجماع الحاصل من الطرفين واتفاقهما على أنها –الآية- نزلت في أمير المؤمنين علي وذلك للدلالات الكثير الدالة على ذلك .( ) ،ولكي يثبت الإمام الصادق أن الولاية لله ولرسوله وللأوصياء من بعده وان طاعتهم مفترضة فقد احتج بهذه الآية عندما سأله الحسين بن ابي العلاء :(الأوصياء طاعتهم مفترضة ؟ فقال الإمام :نعم ، هم الذين قال الله عز وجل : إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ

وفيما أسلفنا ، فان الاستدلال بلفظة (وليكم) أي الأولى بتدبيركم والقيام بأموركم والذي تجب طاعته عليكم ،وهو الاستدلال الذي اتكأ عليه علماء

الامامية في براهينهم على هذه الآية ، وهو مستمد من أئمة أهل البيت، فعن احمد بن عيسى، عن ابي عبد الله في قول الله عزوجل : إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا قال :(إنما يعني أولى بكم أي أحق بكم وبأموركم وأنفسكم وأموالكم ، الله ورسوله والذين آمنوا يعني علياً وأولاده الأئمة ، الى يوم القيامة ، ثم وصفهم الله عز وجل ،فقال: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ( )

وقد أراد الله سبحانه ان تكون صفة إيتاء الزكاة في حال الركوع إشارة واضحة ووصفاً دقيقاً ومؤشراً حقيقياً في إمامة أمير المؤمنين ؛ لهذا نجد الأئمةيحتجون بهذه الآية باعتبارها علامة بارزة وحجة دامغة في أن الولاية قد حصرها الله في هذه الأقطاب الثلاثة :الله عز وجل ورسوله والذين آمنوا ، والذين تكون صفتهم تلك ، فعن عبد الله بن ابي الهذيل عندما سال الأمام الصادق عن الإمامة فيمن تجب ، وما علامة من تجب له الإمامة ؟فقال :(إن الدليل على ذلك والحجة على المؤمنين والقائم بأمور المسلمين ،والناطق بالقرآن ،والعالم بالأحكام ،اخو نبي الله وخليفته على أمته ووصيه عليهم ووليه الذي كان منه بمنزلة هارون من موسى المفروض طاعته ....الموصوف بقوله : إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ( ) ، كما إن الإمام أمير المؤمنين قد احتج أيضاً بهذه الآية من بين عدة امتيازات واختيار من الله عز وجل لم يحصل عليها أي رجل ، وذلك في جمع غفير من الأنصار والمهاجرين الذين أرادوا إنكار تلك الضرورة وتلك الخصال أو على الأقل تغطيتها والتعامي عنها ، وان الله عز وجل إنما ميّز المهاجرين والأنصار بإتباعهم النبي وانه تعالى قد مَنَّ عليهم بالنبي ومن تلك الخصال هذه الآية .( )

وهكذا كان أمر الله تعالى بولاية علي مثبتاً له إياها ومن بعده الأئمة المعصومين وهي ولاية الله اولاً ورسوله ثانياً، فكل ما يرتضيه هؤلاء الأوصياء يرتضيه الله ورسوله ، ومن هنا جاء وصف هذا التلازم والتلاحم على لسان الإمام الحسين بقوله :(رضا الله رضانا أهل البيت

نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين ،لن نشذ عن رسول الله لحمته ،وهي مجموعة له في حظيرة القدس ، تقر بهم عينه ، وينجز بهم وعده)( ) ،وقد أوضح الإمام الباقر هذا المعنى العميق والمغزى الكبير ليؤكد على ذلك التلازم بين الله عز وجل وبين من اصطفاهم واختارهم ، ففي تفسير قوله تعالى : وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ( )إذ سئل عن ذلك فقال: (إن الله أعظم واجل من أن يُظلَم ولكن خَلَطَنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته حيث يقول : إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا يعني الأئمة منا).( )

وصورة أخرى من الاحتجاجات والبراهين والأدلة التي نهد بها الأئمة الطاهرونهي ما احتج بها الإمام الهادي في رسالته الى أهل الأهواز مجيباً لهم على بعض أسئلتهم ، وكيف أن الأئمة لا تجتمع على ضلالة عند إتباعها الكتاب والعترة الطاهرة ، إشارة الى حديث رسول الله :(إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي .... ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا) فقال :(فلما وجدْنا شواهد من هذا الحديث نصاً في كتاب الله مثل قوله : إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ثم اتفقت روايات العلماء في ذلك لأمير المؤمنين انه تصدق بخاتمه وهو راكع فشكر الله له ذلك وانزل الآية فيه) ( ) .
وهكذا كانت هذه الآية الكريمة وآيات أخرى دلالة وبرهاناً للائمةمن اجل تثبيت دعائم الولاية وترسيخ أركان الإمامة بعد رسول اللهوالاحتجاج على الخصوم الذين أزاحوا الحق من موضعه ، وسلبوا الأمر عن أصحابه ، فكان لزاماً على أهل البيتأن لا يتركوا المسالة تدخل في حيز السدى واللامبالاة ، بل اشبعوا ذلك وضوحاً وبياناً فهذا الإمام الصادق ينقل لنا احتجاج جده علي (ومنا شدته لأبي بكر حين ولي الخلافة ، وذكر فضائله لأبي بكر والنصوص عليه من رسول الله، فكان فيما قال له :فأنشدك بالله ألي الولاية من الله مع ولاية رسول اللهفي آية زكاة الخاتم أم لك ؟

فقال أبو بكر بل لك) وهذا يكشف لنا بكل وضوح ان هذا الأمر له من الرسوخ والثبات والقوة ما يجعل الخصم معترفاً بمنزلة أمير المؤمنين من خلال الأدلة الواضحة

ومنها هذه الآية .

صفات الإمام :

اتصف الإمام بصفات وخصائص امتاز بها عن الناس لم يشاركه فيها احد، وقد كانت هذه الصفات له لان من نصبه تعالى لان يكون مرجعاً للأمة في حفظ الشريعة وتنفيذ أحكامها ، لابد ان تتوفر فيه شروط؛ لان المرجعية الشاملة ينبغي لها أن تتحلى بصفات وميزات غاية في الكمال ، تتناسب وخطورة المهام الجسام التي تتولاها، والشأن الذي تتمتع به،فما تمثله من مقام يتناسب وشان الربوبية ؛ لان المسالة ليست منصب معين، أوممارسة الإمارة على الناس ، بل المسالة غاية في العمق والأهمية التي ينبغي أن تدرك ولو بمقدار ما ، من اجل فهم أسرار الاختيار والاصطفاء والنصب ؛لذا بات من الضروري التعرف على صفات أصحاب هذه المرجعية .

والصفات هي :

1- النص : سبق وان اشرنا الى موضوع النص وفصلنا الحديث فيه ، ولكن الذي نود اضافته هنا انه تعالى ينص على إمامة شخص معين باسمه الخاص أما مباشرة وإما بواسطة من نص عليه الحق سبحانه وتعالى ، فنحن عندما نأتي إلى رسول الله 4 فهو منصوص عليه مباشرة وبالاسم (محمد رسول الله) ( ) ، و} هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ { ( ) أما الأئمة فمنصوص عليهم من قبله تعالى ايضاً، ولكن ليس مباشرة ، بل من قبل من نص عليه وهو رسول الله 4 ، وقد سأل أبان الإمام الرضا u عن قوله تعالى :} أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ { ( ) ،فقال u :(ذلك علي ابن ابي طالب u ثم سكت ، فلما طال سكوته قلت : ثم من ؟ ، قال : ثم الحسن ، ثم سكت ، فلما طال سكوته قلت : ثم من ؟ قال : الحسين ، قلت : ثم مَن؟ قال علي بن الحسين وسكت

، فلم يزل يسكت عند كل واحد حتى أعيد المسالة ، فيقول حتى سماهم إلى أخرهم) .( )

وبهذا يكون الإمام الرضاu قد بين أن الأئمة ينص منهم السابق على اللاحق ، وان هذه النصوص لا تكون بتقدير أنساني إنما هي باختيار رباني ، فعن ابي عبد اللهu انه قال : (إن الإمامة عهد من الله عزوجل معهود لرجل مسمى ليس للإمام ان يزويها عمن يكون بعده) .

فقد نقل أن الإمام الكاظم u اخبر احد أصحابه وهو أبا عمارة ، فقال :(يا أبا عمارة إني خرجت من منزلي وأوصيت الى إبني فلان ، وأشركت معه بنيّ في الظاهر وأوصيته في الباطن ،فافردته وحده ، ولو كان الأمر اليّ لجعلته في القاسم إبني لحبي إياه ورأفتي عليه ، ولكن ذلك الى الله عزوجل يجعله حيث يشاء) ( ) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الإمام نفسه لا يستطيع التدخل في هذا الاختيار الرباني وليس له إلا التسليم لأمر الله تعالى .

2- **العصمة** : تجلى لنا مفهوم العصمة واضحا في الفصل السابق – فصل النبوة- ونحاول هنا الوقوف على أهم احتجاجات الأئمةفيها ؛ لما لها من أهمية ، فهي ليست كما يتصور البعض أنها من المسائل الخلافية التي عفا عليها الزمن ، والتي يجب أن تترك إلى غيرها من المسائل ، بل هي من الأمور التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالثقافة والحياة الإسلامية الحاضرة ؛ لان بحثها يضمن سلامة الثقافة واستقامتها وبالتالي يضمن مطابقة حياتنا الحاضرة لما انزل الله من تشريع ، وما ترك نبيه العظيم من سنة، فكما تشترط العصمة في النبي الذي يوحى اليه ؛ ضماناً لسلامة تبليغه والا لما وثق الناس بكلامه ، ولما اطمأنوا الى أخباره وحديثه ،كذلك لابد من اشتراطها فيمن يحمل الى الأجيال المتلاحقة هذا التشريع الإلهي .

يقول الشيخ المفيد :(يجب أن يكون – الإمام- معصوماً؛ لأنه لو جاز عليه الخطأ لافتقر الى إمام آخر يسدده، كما انه لو جاز عليه فعل الخطيئة ، فان وجب الإنكار عليه سقط من القلوب .... فضلاً عن أن الإمام حافظ للشرع ، فلو لم يكن معصوماً لم يؤمن منه الزيادة والنقصان)( ) .

وعليه فان (اعتقادنا بالائمة أنهم معصومون مطهرون من كل دنس وإنهم لا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون واعتقادنا فيهم انهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام) ( )

يقول الإمام السجاد u :(الإمام مَن يكون معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فتعرف،فقيل له : من المعصوم ؟ قال u :(المعتصم بحبل الله وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة ،والإمام يهدي الى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام ،وذلك قول الله تعالى:} إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ {)( ) .

وقد تفردت الإمامية من بين الفرق الإسلامية بإيجابها عصمة الإمام من الذنب والخطأ مع اتفاق غيرهم على عدمها . وفي جانب آخر نجد الفخر الرازي يستدل على وجوب العصمة في تفسيره لقوله تعالى } يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأولي الأمر منكم{ ( ) فيقول :(إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم والقطع، فلابد من أن يكون (ولي الأمر) معصوماً عن الخطأ) ( ). وفيما احتج به الإمام الرضا u في مجلس المأمون على العلماء الذين جاءوا لمحاججته u، إذ إدّعوا أنّ الآية التالية :} ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا { ( ) تدل على عصمة الأمة باجمعها ، فأنكر الإمام الرضا عليهم ذلك ، فسأله المأمون: ما تقول يا أبا الحسن ؟ ، فقال u :(لا أقول كما قالوا، ولكني أقول : أراد الله العترة الطاهرة ، فقال المأمون: وكيف عنى العترة من دون الأمة ؟ فقال (ع): انه لو أراد الأمة لكانت باجمعها في الجنة،لقول الله تعالى:} فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ { ( ) ، ثم جمعهم كلهم في الجنة فقال :} جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ { ( ) فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم . فقال المأمون :من العترة الطاهرة ؟ فقال u : الذين وصفهم الله في كتابه ، فقال عزوجل :} إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً{ ( )....( )

3- الأعلمية : حيث أن الإمام يجب أن يكون من اعلم الناس ؛ لانه لو لم يكن كذلك لاحتاج إلى الآخرين ؛ لأنه باحتياجه وافتقاره إلى الناس يكون كمثلهم ، أي يصبح مأموماً وليس باماماً ، كذلك فهو منصوب للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر ؛ (لذلك يقتضي علمه بالجميع، لان الامر بالشيء والحمل عليه بالقهر فرع العلم بوجوبه والنهي عن الشيء ، والمنع منه بالقهر فرع للعلم بقبحه)( ).

وصفة الاعلمية هذه قد صرح بها التنزيل الكريم في حوار المولى جل وعلا مع الملائكة حينما احتجوا بها على آدم u، فالمولى لم يحتج عليهم بعصمة ادم u ؛ لأنه لو حاججهم بذلك لأجابوه :أنهم أيضا معصومون ، (لكنه تعالى ابرز إليهم ما يفضل به عليهم ، وهي الاعلمية بفلسفة الأسماء وأسرارها وكيفياتها وخواصها ،وقد منح هذا العلم ليحقق جميع المواهب المادية والمعنوية في الكون على طريق تكامله؛ ولذا قال تعالى :} وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا { ( ) ، فالجمع المحلى باللام يفيد العموم، مضافاً الى انه مؤكد بقوله (كلها) ؛ ولذا ينبغي أن نفهم أن هذا العلم الذي تألق به ادم u ليس بمقدور الملائكة الوصول إليه ، وإلا لقالوا لله تعالى: لو علمتنا كما علمت ادم لكنا مثله واشرف منه، ولكنهم لم يقولوا ذلك ، لكونهم استكشفوا عجزهم) ( ). وهذا بعينه ما وقعت به الامة ،اذ أنها ظنت أنها تستطيع أن تتقدم عليهم ، وبهذا احتج الإمام الصادق u بعد أن تلا قوله تعالى :} ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا { ( ) قالu :عجباً للناس يقولون بأنهم اخذوا علمهم كله من رسول الله 4 فعملوا به واهتدوا ، ويرون إنا أهل البيت لم نأخذ علمه ولم نهتد به ، ونحن أهله، وذريته ، في منازلنا انزل الوحي ومن عندنا خرج العلم الى الناس، أفتراهم علموا واهتدوا وجهلنا وضللنا ، إن هذا محال).( )

وهذه إشارة منه u أن علمهم موهوب من الله سبحانه وتعالى يتوارثونه أبا عن جد فهم الذين خصهم الله تعالى بالآية أعلاه .

من هنا يتضح البون الشاسع بين قوله تعالى:} وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ من الْكِتَابِ { وبين قوله :} وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ{ ، فالآية الأولى نازلة في وصي النبي

سليمان u اصف بن برخياً ( ) ، والثانية نازلة بحق وصي محمد علي بن ابي طالب(ع) ، فعن ابي سعيد الخدري انه قال : سألت رسول الله 4 عن (الذي عنده علم من الكتاب الوارد في قصة سليمان ،فقال4: هو وصي اخي سليمان بن داود، فقلت : والآية : }وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ من الْكِتَابِ{ ،عمن تتحدث ؟فقال : ذاك أخي علي بن ابي طالب u ( ) .من هنا يتضح الفرق بين آصف وعليu، بل الفرق بين أوصياء الانبياء السابقين وبين أوصياء محمد 4 فيجب (الالتفات الى هذا الفرق بين (علم من الكتاب) الذي يعني العلم الجزئي ، و(علم الكتاب) الذي يعني علم الكتاب الكلي)( ) وهذا العلم المتكامل الذي كان عند امير المؤمنين u قد توارثه الأئمة الأطهار، فصاروا مدعاة لفخر المولى عزوجل إذ قال : } فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ {( ) فقد عناهم؟وقد أشار الإمام الرضا u الى ذلك أثناء احتجاجه بهذه الاية مع جمع من العلماء الذين جمعهم المأمون العباسي لمحاججة الإمام u ، إذ قال الإمام u محتجاً بالآية :(فنحن أهل الذكر ، فقالت العلماء : إنما عنى بذلك اليهود والنصارى ، فقال الإمام u : سبحان الله ! وهل يجوز ذلك ؟ اذاً يدعونا إلى دينهم ، ويقولون : إنه أفضل من دين الإسلام ، فقال المأمون :فهل عندك في ذلك شرح بخلاف ما قالوا يا ابا الحسن ؟ فقال u : نعم ، الذكر : رسول الله 4ونحن أهله ، وذلك بيّن في كتاب الله عزوجل حيث يقول :} فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (10) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ { ( ) ،فالذكر رسول الله ونحن أهله) ( )،وبنفس هذا المعنى احتج u على عمرو بن هذاب الذي ادعى أن الأئمة؟لا يعلمون الغيب ، وذلك عندما حلوا ضيوفاً في دار الحسن بن محمد العلوي ،قال الإمام u :(إن أنا أخبرتك أنك ستبتلى في هذه الأيام بدم رحم لك ، هل كنت مصدقاً لي ؟ قال عمرو : لا ، فان الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، فاحتج الإمام u بقوله تعالى :} عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (26) إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ { ،فرسول الله عند الله مرتضى ،ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه ، فعلمنا ما كان وما يكون الى يوم القيامة ،وان الذي أخبرتك به يا ابن هذاب لكائن الى خمسة أيام ....)

فقد بين (ع) أن علم الغيب جزء من علومهم التي لا حد له ، والتي لا تصل الى كنهها عقول البشر .

والى هذه الصفات الثلاثة- النص-العصمة- الاعلمية- أشار الإمام الصادق u إذ قال :(إنا أهل بيت عندنا معاقل العلم وآثار النبوة وعلم الكتاب ،وفصل ما بين الناس .... والله لقد أعطينا علم الأولين والآخرين).

4- الأفضلية : يرى الامامية في الإمام أن يكون أفضل من رعيته ؛ (لأنه مقدم على الكل ، فلو كان منهم من هو أفضل منه لزم تقديم المفضول على الفاضل ،وهو قبيح عقلاً وسمعاً)

وترى باقي الفرق الإسلامية جواز تقديم المفضول على الفاضل ،اي ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم بالخلافة ،وهؤلاء هم معتزلة البصرة( ) ، والاشاعرة ، ويرى أبو الحسين الخياط من المعتزلة أن الإمام علياً u هو أحق بالخلافة وانه أفضل الناس بعد النبي (لان الخصال التي فَضل الناس بها متفرقة في الناس وهي مجتمعة فيه) وقد مَن الله تعالى على أهل بيت نبيه بأشياء حباهم بها دون غيرهم من البشر كانت لهم على مر الزمان عنوانا للأفضلية والاصطفاء . فمن ذلك ما روي ان بريد العجلي سأل الإمام الباقر (ع) عن الملك العظيم في قوله تعالى :} فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً { ،فقال(ع) : (الملك العظيم أن جعل فيهم أئمة من أطاعهم أطاع الله ،ومَن عصاهم فقد عصى الله فهو الملك العظيم) ،فالإمام (ع) هنا ينوه الى أن الملك العظيم في لسان الشرع ليس هو السلطة الجبارة التي تركب رقاب الناس من دون أن تكون لها اية مشروعية ،وإنما الملك العظيم من استند في سلطته الى الله سبحانه فتكون حينئذ طاعته طاعة الله وعصيانه عصيان الله جل وعلا ،لأنهم لم يكونوا في يوم من الأيام طلاب سلطة، إنما أرادوا أن ينقذوا هذه الامة من غياهب الجهل والعودة الى الجاهلية الأولى ،وكما قال عبد الله بن احمد بن حنبل في أمير المؤمنين :(لم تزنه الخلافة لكنه زانها)( ) لان غيره ازدان بالخلافة وتمت نقيصته ، وهكذا كان أهل بيته فهم من تربى في بيت النبوة وأحضان الرسالة وارتووا من معينها ،وقد احتج بهذا الإمام

الباقر u على قتادة المفسر عندما قال له قتادة : لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدام ابن عباس فما اضطرب قلبي قدام واحد منهم ما اضطرب قدامك، فقال له أبو جعفر u : (ويحك أتدري أين أنت؟ انتَ بين يدي :} فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (36) رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ { ( ) ، فأنت ثم ، ونحن أولئك ، فقال له قتادة : صدقت والله جعلني الله فداك، والله ما هي بيوت حجارة ولا طين ( ) ،فقد بين (مكانة بيوتهم وسمو قدرها ومكانة سكانها، وعلو شأنهم،حتى عد الله سبحانه وتعالى بيوتهم هذه آمنة للخائف المستجير ، وهذا ما وقف عليه الإمام الباقر وبينه للحسن البصري الذي فسر قوله تعالى :} وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ { ( ) بأنها ارض مكة فقال الإمام u : أفتيت الناس فقلت : هي مكة ، وهل يخاف أهل مكة ، وهل تذهب أموالهم ؟، قال :لا ، قال : فمتى يكونون آمنين ؟ ، بل فينا ضرب الله الأمثال في القران ، فنحن القرى التي بارك الله فيها ،وذلك قول الله عزوجل ، فمن أقر بفضلها حيث أمرهم بان يأتونا فقال :} وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِي وَأَيَّاماً آمِنِينَ { ( )

5-طهارة المولد : ونعني بها انحدار الإنسان من سلالة طاهرة مطهرة غير مشوبة بفسق الآباء وعهر الأمهات، وقد انفرد الامامية بهذه الصفة ،واعتبروا هذا من صفات الإمامة الكبرى، بينما امتنعت بقية المذاهب عن اشتراط هذه الصفة ، وقد فسر الإمام الباقر قول الله تعالى :} الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ { بقوله : قال في أصلاب النبيين. وبما انهم أبناء النبي فان تقلبهم في الصلب المنحدر من صلب الرسول 4كان نتيجة حتمية لتقلب نطفة الرسول في أصلاب الأنبياء، وقد شهد الذكر الحكيم بهذه الطهارة في قوله تعالى :(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) .

4-أشجع الناس : الامامية يرون أن من صفات الإمام الشجاعة ؛ لأنها (مستلزمه الإفراط والتفريط ، والإفراط :رذيلة التهور ،وفيها إلقاء النفس الى التهلكة ، وهذه معصية تنافي العصمة ، والثاني التفريط ،يؤدي الى رذيلة الجبن المستلزم الفرار من الزحف والقعود عما يجب عليه من قمع الأعداء من أهل الفساد في الدين ،وهو ينافي العصمة).

وفي قراءة متصفحة لعرض المواقف البطولية للإمام أمير المؤمنين (ع) من خلال زيارة الإمام الهادي (ع) لجده علي ابن ابي طالب (ع) نجد الصفات المشرقة والملاحم والانتصارات التي تحققت للإسلام بفضل سيف علي (ع) وشجاعته وبسالته في الحروب والغزوات التي قادها الرسول الاعظم (ص)،وهذا الفخر ما بعده فخر ،وعز ما بعده عز ، إذ أن الله سبحانه هو الذي مدح هذه المواقف البطولية بما نطق به التنزيل ، وفي الوقت نفسه فإن القرآن قد كشف تخاذل المنافقين وتراجعهم .

محاضرات في العقائد - المرحلة الثالثة –قسم علوم القرآن

مبحث : المعاد واليوم الآخر

مقدمة :

لقد جاءت رسالات الله إلى العباد تترى على مر العصور، وتم تبليغها عن طريق الأنبياء والرسل. وهي تشمل القوانين التي شرعها الله سبحانه وتعالى لسعادة البشر. وكذلك البشارة بأمور غيبية أخرى أوجب الله سبحانه على جميع المكلفين تصديقها ، تشريفا وتعظيما لحرمة المرسلين وإيمانا منهم برحمة الله تبارك وتعالى ، وما أعد من الكرامة لهم ، إن هم صدقوا المرسلين واتبعوهم ، ولم يتبعوا سبل الباطل التي تردي الانسان الى مهاوي الجهل والتخلف ، وبالتالي تؤدي به إلى الظلم والتعسف ، الذي يؤدي بمصير البشرية إلى الهلاك والفناء.

قال تعالى : (ألم* ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب) ، مشيراً إلى عباده المؤمنين وواصفا لهم بأنهم على هدى أي أنهم مهتدون ، لأنهم يؤمنون بالغيب الذي أخبرهم به رسول الله (صلى الله عليه وآله) تشريفا وتعظيما لحرمة كلمته ، وتصديقا بها.

والغيب هو : كل ما غاب عن الحواس وأخبر عنه رسول رب العزة (صلى الله عليه وآله)، كظهور الإمام المهدي (عليه السلام) ، والمعاد ، وما أعد الله لعباده من الثواب والعقاب يوم القيامة ، وغيرها من الأمور الأخرى .

وفي عقيدتنا أن المعاد أصل من أصول الدين ، لأن الله تعالى جعل الإيمان به ضرورة من ضرورات الدين ، ولا يجوز للمسلم التكذيب به وإنكاره ، لأن منكره يعد من الكافرين الذين يخلدون في النار إن ماتوا على أنكارهم. وهو الأصل الخامس من أصول العقيدة الإسلامية ، ويعتمد في توضيحه على التصديق بالله وبرسالته المنزلة على النبي الأكرم محمد(صلى الله عليه وآله) ، حيث إن القرآن الكريم وأحاديث الرسول(صلى الله عليه وآله) وروايات الأئمة (عليهم السلام) توضح لنا المعاد والبعث وما يجري بعد الموت وأوصاف الجنة والنار ، فالإيمان بالله والتصديق بالرسول(صلى الله عليه وآله) يضمنان إزالة الغموض ويوضحان الاعتقاد الصحيح بالمعاد.

- **متى تبدأ رحلة الإنسان نحو الآخرة؟**

يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) : (ما خُلقتم للفناء بل خلقتم للبقاء وإنما تنقلون من دار إلى دار). بالتحديد تبدأ الرحلة إلى العالم الآخر بالهجرة من الدنيا أي : بالموت ، فحين يموت الإنسان يغادر هذه الحياة الدنيوية إلى حياة أخرى ، فتبدأ مرحلة جديدة مرسومة له سلفاً ، وتمتد هذه المرحلة التي تلي مرحلة الدنيا حتى قيام الساعة حيث يبعث الله من في القبور. وهنا لا بد أن نشير بأن الإسلام هو المدرسة الواعية التي يتتلمذ فيها طلاب الآخرة ، وتضع هذه المدرسة من أولوياتها المسألة الأخلاقية ، حيث تحدد النظرة المطلوبة إسلامياً للدنيا وما فيها من إغراءات وشهوات ، فترسم لنا الشريعة الإسلامية الخط الواضح للتعامل مع الدنيا والطريقة الفضلى للعلاقة مع الحياة الدنيوية ، التي لا بد أن نعتبرها ممراً للحياة الأبدية في الآخرة ، وإن ما نعمله في الدنيا سنجني ثماره في الآخرة ، كما ورد في الحديث الشريف : (الدنيا مزرعة الآخرة) .

وتعلمنا المدرسة الإسلامية بأن ما يجنيه طالب الدنيا من أموال وأرباح وإشباع للغرائز والحاجات ، فإنها زائلة لا محالة بالرغم من محدوديتها . فالإنسان محدود في انتفاعه واستغلال رزقه ، لذلك يعرفون **الرزق** بأنه : القدرة على الانتفاع بخيرات الأرض مالاً وصحة وأولاداً وطبيعة . لذلك فالإنسان محدود في انتفاعه بالأكل والشرب والمنام ، ومهما حصّل على الملذات وفرص إشباع الغرائز فإنها غير خالدة.. فما دام الإنسان مغادراً للدنيا ـ مهما بلغ من الوجاهة والثروة والسلطة ـ فعليه تأتي المدرسة الإسلامية لتبين طريقة التعامل مع الدنيا ، وطريقة التصرف الصحيح للنجاة والربح الحقيقي في الآخرة ، فتضع الأسس الأخلاقية والسلوكية العامة للابتعاد عن حب الدنيا والتعلق بها وبالتالي الابتعاد عن الانحراف والشذوذ والهلع واللهاث وراء المادة ، وتدفع الإنسان للاقتراب من الفضيلة والاحترام والإيثار والتهذيب السلوكي والحب في الله ، لأن هذه السلوكية هي التي تجعل الإنسان المؤمن رابحاً في رحلته القادمة بعد الموت.

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) : (المعاد مضمار العمل فمغتبط بما احتقر من العمل غانم ، ومبتئس بما فاته من العمل نادم). أما الإمام علي (عليه السلام) فيقول : (حتى إذا تصرمت الأمور وتقضّت الدهور وأزف النشور ، أخرجهم من ضرائح القبور وأوكار الطيور وأوجرة السباع ومطارح المهالك ، سراعاً إلى أمره مهطعين إلى معاده).

يقول الله سبحانه : (كل نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون). فالموت ظاهرة حياتية يجب الإيمان بها ، ولكن بعض الناس يحاول أن يتناسى أو يهمل ذكر الموت وكأنه غير مستعد لهذه الرحلة التي لا بد منها ، وأكثر من ذلك إنه غير مستعد للتفكير حول الموت !!!! بل يهرب من مشاهدة ميت ، أو تشييعه !!! مبرراً ذلك بكثرة انشغاله بزخارف الدنيا وأعمالها...

والمفروض من المؤمن أن يذكر الموت دائماً ، ليستقيم خلقياً ويتهيأ لفراق الدنيا والرحلة الطويلة نحو الآخرة ، فهي رحلة شيقة ـ حسب نظره ـ من عالم السجن إلى عالم الحرية فـ(الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) كما ورد في الأثر المبارك. يقول الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله): (أكثروا ذكر الموت فإنه يمحص الذنوب ويزهد في الدنيا). وقال الإمام علي(عليه السلام): (الموت باب الآخرة) و(بالموت تختم الدنيا) (الموت هادم لذاتكم ومكدر شهواتكم) ، ومن وصاياه لولده الإمام الحسن(عليه السلام) : (اعلم يا بني إنما خُلقتَ للآخرة لا للدنيا وللموت لا للحياة..). وقال ـ أيضاً ـ (أنتم طرداء الموت إن أقمتم له أخذكم وإن فررتم منه أدرككم وهو ألزم لكم من ظلكم ، الموت معقود بنواصيكم).

وعن الإمام الصادق (عليه السلام) قال : (ذكر الموت يميت الشهوات في النفس ويقلع منابت الغفلة ويقوي القلب بمواعد الله ويرقّ الطبع ويكسر أعلام الهوى ويطوي نار الحرص ويحقر الدنيا).

أولاً : تعريف المعاد لغة واصطلاحا

المعاد لغة : مصدر عاد يعود ، يقال : عاد يعود عَوْداً ومَعاداً- بفتح ميمه-. وأصله (مَعْوَد) على زنة (مَفْعَل) قلبت واوه ألفاً : رجع ، وفي اصطلاح المتكلمين : يعني عودة الرُّوح بعد مفارَقَتها للجَسَد مرّة أُخرى- وبإذن اللّه ومشيئته- إلى الإنسان يوم القيامة ليلقى جزاءَ ما عَمِلَهُ في الدنيا ، في العالم الآخر، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرّ. ويراد به : الإيمان ببعث الناس يوم القيامة. ويؤكد هذا الأصل أن جميع البشر سيعاد بعثهم يوم القيامة ليقفوا أمام ساحة العدل الإلهي لينال المحسنون منهم ثوابهم وينال الكافرون والظالمون جزاءهم العادل.

ويحظى المعاد في الثقافة الإسلامية بأهمية كبرى استوعبت كما وافراً من آيات القرآن الكريم ومن الأحاديث الشريفة حتى بلغ عدد الآيات التي تحدثت عن المعاد وخصوصياته والأمور المتعلقة به ما يقارب ثلث القرآن الكريم (1200 آية) تقريباً . ويعرب الاهتمام القرآني بهذا اليوم بأنّه سبحانه يسمّيه بأسماء ، ويصفه بصفات خاصة ، **فيسميه بـ :**

1 ـ يوم القيامة ، 2 ـ يوم الدين ، 3 ـ اليوم الآخر ، 4 ـ يوم الحسرة ، ـ يوم الوقت المعلوم ، 6 ـ يوم الحق ، 7 ـ يوم الفصل ، 8 ـ يوم الحساب ، ـ يوم التلاق ، 10 ـ يوم الأزفة ، 11ـ يوم التناد ، 12ـ يوم الوعيد ، 13 ـ يوم الخلود ، 14 ـ يوم الخروج ، 15 ـ يوم الجمع ، 16 ـ يوم التغابُن ، 17 ـ اليوم الموعود ، 18 ـ يوم البعث ، 19 ـ الساعة ، 20 ـ الحاقّة ، 21 ـ القارعة ، 22 ـ الطامّة الكبرى ، 23 ـ الصاخّة ، 24 ـ الميعاد ،25 ـ الغاشية ، 26 ـ الآخرة.

و يصفه بأنّه : 1 ـ يوم عظيم ، 2 ـ يوم كبير ، 3 ـ يوم محيط ، 4 ـ يوم عقيم ، 5 ـ يوم أليم ، 6 ـ يوم مشهود ، 7 ـ يوم عسير ، 8 ـ يوم عبوس قمطرير ، 9 ـ يوم لا بيع فيه ولا خلّة ولا

شفاعة ، 10 ـ يوم مجموع له الناس ، 11 ـ يوم تشخص فيه الأبصار ، 12 ـ يوم على الكافرين عسير ، 13 ـ يوم لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، 14 ـ يوم يجعل الولدان شيباً ، وغير ذلك من الأوصاف.

ثانياً : أهمية الإيمان به

تظهر أهمية الإيمان بالمعاد في حياة الإنسان على مستويين :

مستوى الحياة الفردية : من البديهي أنّ الإنسان إنّما يتحرك ويمارس نشاطاته الحياتية لغرض تأمين حياته وتلبية متطلباتها وغاياتها على أكمل وجه ونيل السعادة والوصول إلى الكمال الدائم بعيداً عن المتاعب والمشاكل. إلا أنّ طبيعة حركة الإنسان ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنوع الأهداف التي يروم تحقيقها في حياته ، كما أن لتحديد الهدف النهائي للحياة ومعرفته الدور الكبير في توجيه بوصلة الإنسان وتحديد نوع السلوك الذي ينبغي اعتماده. فلاريب أنّ من يقْصر الحياة على البعد المادي فقط ، سوف يبذل قصارى جهده لتحصيل النسبة الأكبر من الملذات الدنيوية والانتفاع بملذاتها بالحد الأقصى ؛ فيما نرى المؤمن بوجود عالم آخر ينعدم عنده انحصار الحياة في بعدها المادي ، بل أن هناك أبعاداً أخرى للحياة لا تنتهي بالموت ، وأن لعمله في عالم الدنيا دور في تأمين السعادة الأخروية ، يسير باتجاه معاكس تماماً ويتحرك بطريقة تؤمن له تلك السعاد الحقيقة والحياة الخالدة وتوفر له ذلك الكمال المنشود حتى لو كان ذلك على حساب السعادة والرخاء الدنيويين. قال تعالى : (فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى).وفي ذلك تصوير واضح لنهاية الانسان كما لايخفى !!!

مستوى الحياة الاجتماعية : من الثابت على مستوى البحث الديني والاجتماعي أن لإيمان الإنسان بوجود عالم آخر ترتسم معالمه انطلاقاً من الحياة الدنيا ونوعية العمل وطريقة الحركة ونوع العلاقات التي يرسمها الإنسان لنفسه في هذا العالم ، دوراً مهماً في تحديد نوع العلاقة الاجتماعية وطريقة التعاطي بين الأفراد ، وأن الإيمان بالثواب والعقاب ، يلعب دوراً مهما في إبعاد الإنسان عن كل ما من شأنه التطاول على حقوق الناس والتمدد نحو حرم الآخرين ، بل يخلق لدى المؤمن حالة من الإيثار والشعور بالحب تجاه الطرف الآخر والميل لمدّ يد العون للمحتاجين والمعوزين منهم.

يضاف إلى ذلك أن الإيمان بالمعاد والثواب والعقاب والرقابة الإلهية ، يوفر على المجتمع عناء المراقبة الشديدة ووضع القوانين الصارمة لإجراء العدالة وتطبيق القانون ؛ وذلك لأن المؤمنين بالمعاد والمستشعرين بالرقيب الإلهي سوف يقدمون على الإلتزام بالقانون والشرع في السر والعلن ، وإن غاب عنهم رصد السلطات والرقيب الحكومي. ولا ريب أنّه كلما اتسعت رقعة الإيمان بالمعاد في العالم ، أعطت نتيجة ايجابيه طردية وعمّ الصلاح وهبط مؤشر الجريمة والظلم إلى الحدّ الأدنى.

والجدير بالذكر هنا أن الإيمان بالتوحيد إذا جرّد من الإيمان بالمعاد ، لا يعطي النتيجة التكاملية التي تحصل فيما لو ضمّ الإيمان بالتوحيد إلى الإيمان بالمعاد ، ومن هنا تتجلى لنا فلسفة تركيز الأديان السماوية وخاصة الديانة الإسلامية على ترسيخ أصل المعاد في ذهنية الفرد المسلم ، ونتفهّم أيضا سبب إصرار الأنبياء الإلهيين على ترسيخ هذا الجانب من العقيدة.

ثالثاً : علاقة المعاد بمسألة الروح

يظهر للمتأمل في مسألة المعاد أن الإيمان به والتصوير المنطقي له ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالإيمان بوجود الروح وطبيعة العلاقة بين الروح والبدن ؛ وإلّا لا يمكن بحال من الأحوال تعقّل المعاد فيما تزلزلت العقيدة بوجود الروح وتزعزع الإيمان بمعقولية وجودها. ومن هنا يتوقف الوصول إلى الإيمان الصحيح والمنطقي بهذا الأصل المهم على إثبات مجموعة من المقدمات :

1. الإيمان بوجود الروح.
2. الإيمان بأنّ الروح حقيقة جوهرية وليست من قبيل الأمور العارضة على البدن.
3. الإيمان باستقلالية الروح عن البدن ، وأن فناء البدن لا يعني بحال من الأحول فناء الروح ، بل هي باقية حتى بعد مفارقة الجسد لها وفنائه وتحلل أجزائه.

والملاحظة الأخرى التي يلزم التنبيه عليها هنا هي أنّ تركيب الإنسان من الروح والبدن ، ليس من قبيل تركيب مادة كيميائية من عنصرين بحيث لو انفصل أحدهما عن الآخر لانعدم الموجود المركّب بصفته كلا ومركباً ، بل الروح هي العنصر الأصلي والأساس في الإنسان ، وما دامت باقية فإنّ إنسانية الإنسان وشخصية الشخص باقية ، ومحتفظة بنفسها. ومن هنا فإنّ تغير خلايا البدن وتبدلها لا يضر بوحدة الشخص ، وذلك لأنّ ملاك الوحدة الحقيقية للإنسان هو وحدة روحه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في ردّه على المنكرين للمعاد حين سألوا: كيف يمكن للإنسان أن يكتسب حياة جديدة بعد أن تتلاشى أجزاء بدنه؟

فأجاب : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ...﴾ ، والحال أن بدن الإنسان سوف يتفسخ بعد الموت ويفنى بمرور الأيام ولا يمكن أن يكون هو المقصود بالتوفي في قوله ﴿يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾.

رابعاً : أقسام المعاد

1. **المعاد الجسماني بالجسم المادي العنصري :** ذهب جمهور المتكلمين و عامة الفقهاء و أهل الحديث إلى القول بأن الإنسان سيحشر يوم القيامة بجسمه المادي والعنصر الدنيوي ، أو ببدن آخر مشابه له بعد حلول النفس فيه مرّة أخرى . قال تعالى : (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه) ، وقال : (وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا ترابا إنا لفي خلق جديد) ، وقال : (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد).
2. **المعاد الروحاني :** ذهب جمهور الفلاسفة وحكماء الفلسفة المشائية إلى القول بالمعاد الروحاني بمعنى رجوع الروح فقط دون الجسد. وأن جسم الإنسان بعد الموت سوف يفنى وينعدم وتتلاشى أجزاؤه ويتحول إلى تراب وإنما الذي يبقى هو الروح فقط.

3. **المعاد الجسماني والروحاني :** يرى الكثير من الحكماء والعرفاء وجماعة من المتكلمين والكثير من علماء المذهب الشيعي الاثني عشري : أن المعاد جسماني و روحاني.

خامساً : نظريات مختلفة في تفسير القيامة

انقسم الباحثون حول قضية المعاد بين مؤيد لها وبين من أنكر إمكانها أو وقوعها. وقد طرحت على ساحة الجدال المحتدم بين الاتجاهات والفرق المختلفة مجموعة من النظريات حول هذه القضية منها :

1. **إعادة المعدوم :** يظن فريق أن المعاد يعني (إعادة المعدوم) . وما أكثر ما بحث المتكلمون القدامى في عدم استحالة المعدوم ، ظناً منهم أنّ المعاد والقيامة يعنيان ذلك. فهم افترضوا انعدام الأشياء (انعداما مطلقاً) ثم راحوا يبحثون عن الشيء إذا كان معدوما مطلقا ، فهل يمكن أن يوجد مرّة أخرى ، أم إن ذلك من المحالات؟ ولما كانت الأديان قد أخبرت عن عودة الإنسان بعد الموت والفناء ، فقد فهموا من المعاد المذكور هو إعادة المعدوم ورجعة الشيء الذي فنى بالكامل.
2. **عودة الأرواح إلى الأجساد :** يفسّر فريق آخر من الباحثين ، بل مشهور المتكلمين المعادَ بأنّه يمثل عودة الأرواح إلى الأجساد المادية. فعندما يموت الإنسان تفارق روحه بدنه وتصير الروح المنفصلة إلى عالم معيّن يقال له البرزخ إلى أن تحلّ القيامة. وعندما تقوم الساعة ترجع كل روح لبدنها.
3. **عودة الأرواح المجرّدة إلى الله تعالى :** هناك طائفة أخرى من المفكرين والأعلام ذهبت إلى تفسير المعاد بعودة الروح المجردة ورجوعها إلى الله تعالى. ولكي تتضح هذه النظرية بجلاء لابد من الإشارة إلى بعض المقدمات :

الأولى : أن المعاد يعني الرجوع.

الثانية : إن الإنسان مؤلف من روح وبدن.

الثالثة : الجسم وجود مادي ولا معنى للقول أنّ الاجساد تعود إلى الله ؛ لأن الشيء المادي لا يعود إلى الله تعالى المجرّد التام ؛ بل الروح هي التي بمقدورها أن تطوي الدرجات والمراتب وتكون أقرب إلى النشأة الربوبية بحسب درجاتها ومراتبها ، فالقيامة عند هؤلاء هي عودة الأرواح إلى الله.

4. **عودة الأرواح إلى الله بكيفية جسمانية :** اختار فريق آخر الجمع بين هذين الاثنين وانتهوا إلى نظرية مؤدّاها : إذا كان المعاد هو العود إلى الله وليس عودة الأرواح إلى الأجسام ، فإنّ لهذا العود كيفية جسمانية في الوقت نفسه. وبعبارة أخرى : إن المعاد يعني رجوع الروح إلى ربّها لكن لا مجرّدة تماما عن البدن وعن خصوصيات المادة معاً ، ولا مصاحبة للبدن المادي بتمام وجوده وخصوصياته معا ، بل ترجع الروح إلى بارئها مع الخصوصيات الجسمانية فقط. فللإنسان وفق نظرية هؤلاء بدن يسمّى بالبدن المثالي أو البدن البرزخي ، هو موجود ومتّحد الآن مع بدنه هذا ، فإذا مات الإنسان

صار لبدنه هذا حكم الفضلة والقشر ، ولذلك المثالي البرزخي حكم الجوهر، والبدن الأوّل هو الذي يتحلل ويتغير ويفنى باستمرار، ليظهر بدن آخر بدلا منه. فبالموت يتحرر بدنه المثالي- وهو بدن الإنسان الحقيقي- من هذا البدن الذي هو كاللباس لذلك البدن المثالي ويلقى ربّه به يوم القيامة.

5. **تجدد الحياة الدنيوية المادّية بشكل آخر:** أراد فريق آخر أن يفسّر المعاد على أنّه شأن مادّيّ وطبيعي ، مثلما حصل للمجموعة الأولى ، ولكن دون حاجة للقول بعودة الأرواح إلى الأجسام. فالأرواح– حسب رأي هؤلاء- لا تعود إلى الأجسام ؛ لأنه ليس هناك أرواح بالأساس ، بل تتجدّد الحياة المادية هذه بنفسها بشكل آخر على نحو تدريجيّ كما حصل أول مرّة وفي النشأة المادية في الحياة الدنيوية.

سادساً : براهين ضرورة المعاد

1. **دليل الفطرة :** وهذا الدليل يبتني على مجموعة من المقدمات منطلقا من الميل البشري الفطري العام. -جميع الناس ميّالون فطرياً نحو البقاء والخلود ؛ - لم يخلق الله تعالى تلك الميول في الإنسان عبثا وبلا غاية ؛ لحكمته والحكيم لا يصدر منه العبث واللغو. - لا ريب أن الدنيا ليست بدار قرار وخلود ؛ - إذن لابد من وجود عالم آخر يتصف بالخلود والسرمدية ، ليؤمن للإنسان ميله الفطري نحو الخلود بالنحو الأمثل.
2. **برهان الحكمة :** قرر بعض الأعلام والمفكرين برهان الحكمة بالنحو التالي :

إن خلق الإنسان ليس عبثا أي بلا هدف وغاية ، بل هو خلق لحكمة ، انطلاقاً من صفة الحكيم التي يتسم بها الله تعالى ، ومن هنا خلق العالم بالصورة التي يترتب عليها أكثر ما يمكن من الخير والكمال وأن تصل المخلوقات إلى غايتها وكمالها اللائق والمناسب لها.

ولما كان الإنسان يمتلك الروح القابلة للبقاء ، ويمكنه الحصول على الكمالات الأبدية الخالدة ، تلك الكمالات التي لا يمكن مقارنتها بالكمالات المادية من حيث الدرجة والقيمة الوجودية ، بل تفضل عليها وتتفوق بكثير، فإذا تحددت حياته بهذه الدائرة الدنيوية الضيقة ، فإنّ ذلك لا يتلائم مع الحكمة الإلهية ، وخاصة مع ملاحظة اقتران الحياة الدنيوية بالمتاعب والمشاق والمصاعب الكثيرة ، ولا يمكن الحصول على لذة غالبا دون معاناة ومشقة وتعب ، وأنّ الحصول على تلك اللذات الضئيلة لا يساوي شيئا تجاه المتاعب والمصاعب التي يتحملها الإنسان في سبيل الحصول عليها.

إن هذه الحياة الدنيوية هي الحياة الروتينية الرتيبة المرهقة والباعثة على الملل والسأم ، لا يرتضيها العقل ، ولا يفتي باختيارها ، ولا تنسجم مع الحكمة الإلهية ، ومن هنا لابد من وجود عالم آخر يخلو من هذه الإشكالية ويوفر للإنسان ما يصبو إليه من جهة ، وينسجم مع الحكمة الإلهية من جهة أخرى. إذن، فوجود مثل هذا الميل الفطري إنما يتلائم مع الحكمة الإلهية فيما لو وجدت حياة أخرى غير هذه الحياة المحكوم عليها بالموت والفناء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا البرهان في قوله تعالى : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَينَهُما لاعِبينَ ما خَلَقْناهُما إلاَّ بِالْحَقِّ وَلكنَّ أَكثَرَهُمْ لا يعْلَمُونَ إنَّ يوْمَ الْفَصْلِ ميقاتُهُمْ أَجْمَعينَ.﴾

3. **برهان الرحمة :** ويتشكل البرهان من المقدمات التالية :

لاريب أن الله رحيم بعباده / - إن رحمته تعالى تعمّ جميع المخلوقات / - شمول الرحمة الإلهية للعباد تستلزم أن لا تحرم الموجودات من خروج طاقتها واستعداداتها من القوّة إلى الفعلية / - ينال الإنسان الكمال بواسطة أفعاله الاختيارية الدنيوية ويكون مستعدّاً لتلقي الفيض والنعم الروحية والمعنوية / - عالم الدنيا- لضيقه- لا يوفر للإنسان المجال الكافي ليستفيد من كمالاته التي حصل عليها من خلال أعماله الإختيارية.

ومن هنا لابد من وجود عالم آخر يوفر لكل إنسان الأرضية المناسبة ليقتطف ثمار كمالاته التي نالها. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيجْمَعَنَّكمْ إلى يوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيبَ فيهِ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يؤْمِنُونَ.﴾.

4. **برهان العدالة :** يستند هذا البرهان على صفة العدل التي يتصف بها الباري تعالى ، وذلك : أنّ الناس أحرار في هذا العالم في اختيار أو ممارسة الأعمال الحسنة أو السيئة. فمن جانب ، نلاحظ بعض الأفراد يقضون أعمارهم كلّها في عبادة الله وخدمة عباده ومن جانب آخر، نلاحظ بعض الأشرار والمجرمين يرتكبون- من أجل الوصول لنزواتهم وأطماعهم الشيطانية - أبشع أنواع الظلم وأفضع ألوان الذنوب ، بل إن الهدف من خلق الإنسان في هذا العالم ، وتجهيزه بأنواع الميول المتضادة ، وبقوّة الإرادة والاختيار، وبأنواع المعارف العقلية والنقلية ، وتوفير الأجواء والظروف للأفعال المختلفة ، وجعله على مفترق طريقين ، الحق والباطل ، والخير والشر، الهدف من ذلك كلّه أن يكون معرضا للاختبارات والابتلاءات العديدة ، وليختار مسير تكامله بإرادته واختياره ، حتّى يصل إلى نتائج أفعاله الاختيارية ، وثوابها أو عقابها. وفي الواقع إنّ الحياة الدنيوية بكاملها جعلت للإنسان دار ابتلاء واختبار، وبناء لهويته الإنسانية ، وحتى في أواخر لحظات حياته وعمره ، لا يعفى من هذا الامتحان والتكليف وممارسة الوظائف.

ولكننا نرى أنّ الأخيار والأشرار لا يصلون في هذه الدنيا إلى الثواب والعقاب الملائم لأعمالهم ، بل إننا نرى الكثير من الأشرار والمجرمين يتوفرون أكثر من غيرهم على النعم والملذات ، والملاحظ أن الحياة الدنيوية لا تستوعب الثواب أو العقاب على الكثير من الأعمال والتصرفات. فمثلا : ذلك المجرم الذي قتل آلاف الأبرياء لا يمكن الاقتصاص منه في هذه الدنيا إلا مرّة واحدة وبطبيعة الحال سوف تبقى الكثير من جرائمه بدون عقاب مع أن مقتضى العدل الإلهي أن يرى حتى من ارتكب أقل الأعمال الحسنة أو السيئة نتائجها وجزاءَها.

إذن. فكما إنّ هذا العالم دار اختبار وتكليف ، فلابد من وجود عالم آخر، يعتبر دار ثواب وعقاب

، وظهور نتائج الأعمال فيه ، ليصل كل فرد إلى ما يتلائم وأعماله ، لتتجسد العدالة الإلهية عمليا وحسيّا بذلك.

وقد جاء في أكثر من آية من آيات الذكر الحكيم الإشارة إلى حقيقة أنه لا يمكن المساواة بن المجرمين والصالحين بحال من الأحوال ، كما في قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذينَ اجْتَرَحُوا السَّيئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يحْكمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كلُّ نَفْسٍ بِما كسَبَتْ وَهُمْ لا يظْلَمُونَ.﴾

سابعاً : دليل إمكان المعاد ، وما جاء في القرآن الكريم :

من السهل على المؤمنين بالقرآن الكريم ، الإيمان بإمكانية المعاد لما لمسوه من الأمثلة التي ساقها القرآن كظواهر مشابهة للمعاد والدالة على إمكانية البعث والنشور وعودة الحياة يوم القيامة ، منها :

1. **آيات الخلق الأول :** يقول تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . ففي هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى إمكان إثبات المعاد بدليل أن الذي خلقها وكوَّنها في أول مرة قادر على إحيائها وخلقها من جديد مرة ثانية ، لأن القدرة واحدة بل لعل الخلق الثاني أهون وأيسر بنظر المخلوقين ولكن عند الله تعالى أيسر في كل المراحل لأن قدرته متساوية لجميع الأشياء.
2. **آيات القدرة الإلهية المطلقة :** البحث في المعاد يأتي بعد إثبات التوحيد والصفات الثبوتية والسلبية ، وإن إحدى صفاته تعالى (قدرته غير المحدودة) ، التي ظهرت في خلق السماوات والأرض والمجرات والكواكب وتنوع المخلوقات ودقة النظام ، وذلك كله دليل على قدرته تعالى ، إذ يقول : ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ، ويقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ ، ويقول : ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، ففي هذه الآيات المباركة يقيس الله تعالى إحياء الموتى بخلق السموات والأرض ، فالذي يخلق هذا الخلق العظيم قادرٌ على إعادة الإنسان الذي خلقه أولاً.
3. **آيات تطور مراحل خلق الإنسان :** إن التغيّرات التي تطرأ على النطفة منذ استقرارها في الرحم حتى الولادة وتقلّبها وتبدلها في تلك المرحلة ، لخير دليل على ثبوت المعاد ، لأنه نموذج من نماذجه . فالإنسان بموته ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى. يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا... * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ، ويقول : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ

الْمَوْتَى﴾ ، ففي هذه الآيات يشير القرآن الكريم إلى مراحل الإنسان الأربع (التراب ، النطفة ، العلقة ، المضغة) ، وكل مرحلة تُعتبر بنفسها عالماً عجيباً.

4. **إحياء الأرض بعد جفافها** : قرّب القرآن في هذا المثال ، فكرة المعاد وإمكانية وقوعها ، وأن إعادة إحياء الموتى تقترب من الناحية الإمكانية مع إحياء النباتات الجافة ، فإحياء النباتات الميتة هي ظاهرة أخرى من الظواهر الدالة على المعاد والتي أشار إليها القرآن الكريم في عدد من آياته ، فذلك النظام وتلك الحالة المتكررة والمتجددة في كل عام ، دليل صريح على المعاد ، حيث إن كل من على الأرض يرى هذه النباتات كيف تموت وكيف تُحيا في كل عام وعند كل موسم ، إذا تهيأت لها ظروف الحياة. وإن الحاكم على موت هذه النباتات وعلى إحيائها هو نظام واحد في كل الموارد وحتى على الإنسان وباقي المخلوقات.

يقول تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ ، ويقول : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ، ويقول : ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وفي هذه الآيات أيضاً يقيس الله تعالى إحياء الإنسان بإحياء النباتات بعد موتها ، لأنها تابعة لنفس القانون وهو أمرٌ يحتاج إلى تأمل وتفكُّر، ونحن لا نعتني كثيراً بهذا التغيير في النباتات ، لأننا اعتدنا مشاهدته في كل عام فصار أمراً عادياً وإلا فإنه تابع لنظام دقيق.!!

5. **قصة النبي إبراهيم (عليه السلام):** مع الطيور الأربعة عندما طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى حتى يطمئن قلبه. قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .
6. **إحياء الموتى على يد النبي عيسى عليه السلام:** المثال الآخر الذي أشارت إليه الآيات القرآنية لتقريب فكرة المعاد ، قال تعالى على لسان نبيه : ﴿وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللهِ.﴾ .
7. **قصة النبي عزير (عليه السلام) :** الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه ، عندما مرَّ على قرية مهجورة ، فأراد أن يشاهد إحياء الموتى بنفسه ليكون ذلك دليلاً قاطعاً أمام المنكرين.
يقول تعالى : ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ايَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
8. **رقاد أصحاب الكهف :** أشار القرآن إلى مجموعة من الفتية الذين آمنوا بالله تعالى وكانوا يخفون إيمانهم خوفاً من ملكهم ، الّذي كان يعبد الأصنام ويدعو إليها ، ويقتل من

خالفه ، ثم اتفق أنّهم اجتمعوا وأظهروا أمرهم لبعضهم ، ولجأوا إلى كهف فضرب سبحانه على آذانهم ، فناموا في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم بعثهم.
يقول سبحانه في سورة الكهف : ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا.... وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا.﴾ .

وقد اظهر القرآن الكريم اهتماماً جليّاً بأمر المعاد ، وذلك من خلال كثرة الآيات التي تعرضت للحديث عنه من أكثر من زاوية والتي بلغت ما يقرب الثلث من مجموع الآيات القرآنية ، التي توزعت على مجموعة من الطوائف ، هي :

1. طائفة من الآيات تركز على وجوب الإيمان بالآخرة.
2. طائفة تشير إلى النتائج الخطيرة التي تترتب على إنكار المعاد.
3. طائفة تبشّر بالنعم الأخروية الخالدة.
4. طائفة تحذر من الخلود في عذاب جهنم.
5. طائفة تربط بين الأعمال الصالحة والطالحة وما يترتب عليها يوم القيامة.
6. طائفة تتحدث عن إمكانية البعث والنشور وضرورتهما.
7. طائفة تردّ على شبهات منكري المعاد.
8. طائفة تربط الضلال والانحراف بنسيان يوم الحساب وإنكار القيامة.

إن التأمل بتلك الطوائف من الآيات المباركة يظهر لنا وبوضوح ، أن طائفة كبيرة من كلام الأنبياء وجدالهم مع الناس اختص بهذا الأصل العقائدي ، بل يمكن القول بأنّ الجهود التي بذلها الأنبياء لإثبات المعاد تفوق جهودهم في إثبات أصل التوحيد ؛ وذلك لأن الناس قد أظهروا عناداً وجدلا كبيرين في تلقي هذا الأصل والإيمان به ، أكثر مما أبدوه في سائر الأصول كأصل التوحيد ، ومن هنا اقتضى التركيز عليه كثيراً.

ثامناً : بواعث إنكار المعاد

الناس أمام دعوة الأنبياء إلى البعث في النشأة الأخرى كانوا على صنفين : معتنق يشكل الأقلّية في المجتمع الإنساني ، ومنكر يشكل الأكثرية الساحقة فيه. وكان المشركون من العرب المعاصرون للنبي (صلى الله عليه وآله) ، أكثر عناداً ولجاجاً في المعارف ، خصوصاً ما يرجع منها إلى البعث ويوم الحساب. ومن تلك العوامل :

الباعث الأول : الاستئناس بالجانب المادي المحسوس واستغراب بل رفض كل ما لا يقع تحت الحواس ، وبما أن المعاد والقيامة من الأمور الحسيّة ، فمن هنا أنكر الغارقون في الجانب المادي هذا الأصل بذريعة أنه لا يخضع لسلطة الحواس.

الباعث الثاني : التحلل من القيود والحدود : إنّ الإيمان بالمبدأ والمعاد ، لا يتلخّص في الإقرار اللساني ، بل المؤمن يحمل مسؤولية خاصة أمام الله سبحانه في الحياة الدنيوية ، ولازم هذه المسؤولية ، الالتزام بحدودٍ وقيودٍ تصُدُّه عن التحلل والانخراط في الملاذ والشهوات والانهماك في إشباع الغرائز الحيوانية. وقد كان الالتذاذ واتّباع الهوى ، غاية المنى لأكثر المنكرين ، وكان

يسود عليهم سيادة الإله على خلقه ، قال سبحانه وتعالى : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا.﴾

و لمّا كان الاعتقاد بالمعاد ، منافٍ لهذا المبدأ الحيواني ، أنكروه بحجج واهية . ويشير الذكر الحكيم إلى هذا الباعث ، بقوله : ﴿أَيَحْسَبُ الإنسان أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الإنسان لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ ، فالآية الأُولى تذكر معتقدهم وإنكارهم ، والآية الثانية تذكر باعث إنكارهم ، وأنّه ليس هو ما يتظاهرون به من عدم إمكان جمع العظام ، وإنّما هو رغبتهم في أن يرفعوا كل عائق يحدّ من انغماسهم في الملذات ، وكلّ رادع يصدّهم عن إرضاء الغرائز البهيميّة.

الباعث الثالث : يتمثل بوجود بعض الشبهات التي تواجه المعاد التي لم يتمكن المنكرون من الإجابة عنها فمالوا إلى إنكار أصل القضية. ومنها :

1. شُبهة الآكل والمأكول :

إنّ هذه الشبهة من أقدم الشبهات التّي وردت في الكتب الكلامية حول المعاد الجسماني ، وقد اعتنى بدفعها المتكلمون والفلاسفة عناية بالغة ، والإشكال يقرر بصورتين :

الصورة الأُولى : إذا أكل إنسان إنساناً بحيث صار بدن الثاني (المأكول) جزءاً من بدن الإنسان الأوّل (الآكل) ، فالأجزاء التّي كانت للمأكول ثم صارت للآكل ، إمّا أن تعاد في كل واحد منهما ، أو تعاد في أحدهما ، أو لا تعاد أصلًا.

- والأول محال ، لاستحالة أن يكون جزءاً واحداً بعينه ، في آن واحد ، في شخصين متباينين .

- والثاني خلاف المفروض ، لأنّ لازمه أن لا يعاد الآخر بعينه.

- والثالث أسوأ حالًا من الثاني ، اذ يلزم أنْ لا يكون أي من الإنسانين معاداً بعينه. فينتج أنّه لا يمكن إعادة جميع الأبدان بأعيانها.

الصورة الثانية : لو أكل إنسان كافر، إنساناً مؤمناً ، وقلنا بأنَّ المراد من المعاد هو حشر الأبدان الدنيوية في الآخرة ، فيلزم تعذيب المؤمن ، لأنّ المفروض أنّ بدنه أو جزءاً منه ، صار جزءاً من بدن الكافر، والكافر يُعَذَّب ، فيلزم تعذيب المؤمن.

أما فلاسفة **المشائية** فإنهم لما واجهوا هذه الإشكالية ذهبوا إلى القول بأنّ المعاد الجسماني غير ممكن الإثبات عقلا. وأما **المتكلمون** فقد ذهب الكثير منهم للذبِّ عن هذه الصورة من الإشكال بما حاصله : أنّ المُعاد إنما هو الأجزاء الأصلية ، وهي الباقية من أوّل العمر إلى آخره ، لا جميع الأجزاء على الإطلاق ، وهذه الأجزاء الأصلية ، الّتي كانت للإنسان المأكول ، هي في الآكل فضلات ، فإنا نعلم أنّ الإنسان يبقى مدة عمره وأجزاء الغذاء تتوارد عليه وتزول عنه ، فإذا كانت فضلات فيه ، لم يجب إعادتها في الآكل بل في المأكول.

فيما ذهب صدر المتألهين إلى معالجة هذه الشبهة عن طريق نظرية البدن المثالي ، وأنّ الإنسان يبعث بهذا البدن لا البدن المادي للآكل والمأكول. وبهذا يكون **الملا صدرا** طرح نظرية جديدة في المعاد الجسماني لا يتوجه إليها الإشكال.

2. شبهة إعادة المعدوم :

إن الدافع لإنكار المعاد هو تلك الشبهة التي يعبّر عنها في الفلسفة بـ (استحالة إعادة المعدوم) ، أي أن هؤلاء كانوا يعتقدون بأنّ الإنسان هو هذا البدن المادي الذي يتلاشى وينعدم بالموت ، وإذا ردّت له الحياة من جديد بعد الموت ، فهو إنسان آخر، إذ أنّ إعادة المعدوم أمر محال وممتنع - حسب قواعدهم- وليس لها إمكان ذاتي.

وقد ردّ القرآن الكريم على تلك الشبهة بأنّ الإنسان لا يفنى بعد الموت وإنّما الذي يفنى منه خصوص الجسد وأما الروح فيتلقاها ملك الموت وهي التي ستحشر، فلا معنى حينئذ لإثارة إشكالية إعادة المعدوم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كافِرُونَ قُلْ يتَوَفَّاكم مَّلَك الْمَوْتِ الَّذِي وُكلَ بِكمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكمْ تُرْجَعُونَ.﴾

3. الشبهة في مجال قدرة الفاعل :

إنّه يشترط في وقوع أيّة ظاهرة من الظواهر وتحققها ، قدرة الفاعل على ذلك ، إضافة للإمكان الذاتي وقابلية القابل ، ومن هنا لابد أن يكون المتولي- حسب هذه الشبهة- لأمر المعاد قادراً على إعادتها قدرة تامة ، مع قابلية تلك الأجساد للعودة إلى الحياة ؛ خلافا لبداية الخلق فإن بداية الخلق تجري حسب القوانين الطبيعية والشروط الموضوعية التي تحتضن الخلية كالرحم ووجود جسد مؤهل للتعامل مع هذه الخلية الملقحة.

والجواب : من اين نعرف أنّ الله تعالى لا يملك القدرة على إحياء الموتى؟!

إن هذه الشبهة الضعيفة ، إنما تطرح من قبل أولئك الذين يجهلون قدرة الله تعالى اللامتناهية ، التي ليس لها حدود ، وتتعلق بكل شيء ممكن الوقوع ، كما هو الملاحظ بأنّه تعالى خلق هذا الكون الواسع بكل ما يتمتع به من عظمة مثيرة للدهشة والإعجاب : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.﴾

4. الشبهة في مجال علم الفاعل :

يقال : إنّه إذا أراد الله تعالى إحياء الناس ، ومجازاة أعمالهم ثواباً أو عقاباً ، فيلزم من جانب أن يميّز بين الأبدان التي لا تعدّ ولا تحصى ، ليعيد كل روح إلى بدنها ، ومن جانب آخر، لابد من أن يتذكر جميع الأعمال الحسنة والسيئة ، ليجازي كلا منها بما تستحقه من الثواب أو العقاب ، ولكن كيف يمكن التمييز والتعرف على الأبدان التي تحوّلت إلى تراب ، واختلطت ذراتها وأجزاؤها؟ وكيف يمكنه أن يضبط ويتذكر أعمال البشر كلّها خلال الآلاف بل الملايين من السنين ليحاسبها؟

وهذه الشبهة طرحها أولئك الذين يجهلون العلم الإلهي غير المتناهي ، حيث قاسوا العلم الإلهي بعلومهم الناقصة والمحدودة ، غافلين عن أن العلم الإلهي ليس له حدود ، وله إحاطة بكل شيء ، ولا ينسى الله تعالى أي شيء. إذ ينقل القرآن الكريم عن فرعون قوله لموسى ﷺ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ فقال موسى ﷺ: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ ، وقد ذكر الجواب عن الشبهتين الأخيرتين : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ.﴾ .

الشفاعة